الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة الجوائز



رواية

جيوكوندا بيلى

الكون في راحة اليد



ترجمة: أحمد عبد اللطيف

بيللى، جيو كوندا، ١٩٤٨ ـ

الكون فى راحة اليد: رواية/ جيوكوندا بيللى؛

ترجمة: أحمد عبد اللطيف. ـ القاهرة : الهيئة

المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.

٢٨٠ص ؛ ٢٢سم. ـ (سلسلة الجوائز)

تدمك ٧ ٠٦٥ ٢٠٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الأمريكية.

أ ـ عبد اللطيف، أحمد. (مترجم)

ب ـ العنوان.

ج ـ السلسلة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٠٧٤/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 207 - 065 - 7

ديوى ٨٢٣

الكون في راحة اليد

رواية

جيوكوندا بيلي

ترجمة: أحمد عبد اللطيف



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٢

• الكتاب: **الكون فى راحة اليد**

EL INFiNITO EN LA PALMA DE LA MANO

• تأليف: **چيوكوندا بيلى**

Gioconda Billi

• ترجمة: **أحمد عبد اللطيف**

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلفة للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• الطبعة الأولى ٢٠١٢.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

الإهداء

أهدى هذا الكتاب إلى ضحايا حرب العراق المجهولين.

ففى مكان ما من تلك الأرض، كان هناك فردوس ذات مرة بين دجلة والفرات.

"وتكون بابل كومًا ومأوى بنات آوى ودهشًا وصفيرًا بلا ساكن"

سفر أراميا، الإصحاح ٥١ ـ ٣٧

ونهاية اكتشافاتنا الوصول إلى المكان الذى منه بدأنا وعرفناه للمرة الأولى.

تى. إس. إليوت

كى ترى العالم فى حبة رمل،

والسماء فى زهرة برية،

حِطْ بالكون فى راحة يديك

وبالأبدية فى ساعة زمنية.

ويليام بليك

كلمة المؤلف

وُلِدتْ هذه الرواية من دهشتى لمّا اكتشفتُ المجهول فى حكاية كنت أظننى أعرفها طوال حياتى لقدمها.

ورغم أننى أشعر بفتنة القصص التوراتى عن بدايات العالم وأبطاله الأوائل، إلا أن فكرة إعادة تشييد دراما آدم وحواء فى الفردوس الأرضى كانت حصاد صدفة بحتة.

ذات مرة، اضطررت لانتظار طويل داخل مكتبة أحد أقاربى - فى غرفة صغيرة ذات رفوف فى حوائطها الأربعة وصناديق ممتلئة بمجلدات مغبّرة ومكومة على الأرض -، جالت عيناى الرفوف وكعوب الكتب. كنت أعرف أنها نسخ قديمة أخرجها صاحب المكتبة مؤخرًا من قبو ظلت فيه لسنوات طويلة. لفتت انتباهى مجموعة مجلدات بنية اللون تشى أغلفتها بمرور الزمن. وعلى كعبها قرأت العنوان: كتب مقدسة

وأدب الشرق القديم. وتحته يحدّد: بابل، الهند، مصر... حتى الوصول للمجلد الأخير المعنون: كتب سرية عظيمة.

سحبتُ هذه النسخة الغامضة وفتحتُ مسحورةً صفحاتها المائلة للصفرة. حسب المقدمة، كانت عبارة عن نصوص محرّفة، روايات من العهد القديم والجديد لكن، رغم أنها كُتبتْ فى القدم مثل الروايات الرسمية التى يتكون منها الكتاب المقدس الذى نعرفه اليوم، إلا أنه استبعدها لأسباب كنسية مختلفة. وأكدّت المقدمة على أنه تجميع للكتب العظيمة التى رفضها من حرروا النصوص المقدسة. ومن بينها كتب أخنوخ، رؤى باروخ، كتاب نوح المفقود، أناجيل نيقوديموس وكتب آدم وحواء، التى تحتوى: حيوات آدم وحواء، رؤى موسى وكتاب حواء السلافى.

وأسيرة لاستثارة من تقوم باكتشاف مثير، قرأت أولاً النص الذى يحكى حيوات آدم وحواء. كان النص يبدأ من خروجهما من الفردوس ويسرد أعمالهما والحيرة التى عاشا فيها لمّا وجدا نفسيهما فجأة بأيد خاوية من المزايا فى عالم منعزل ومجهول. بقراءة النص المحرّف، استحضرتُ بكل حماس الحكاية التى قررت هذا المساء كتابتها عن آدم وحواء.

هكذا ظللت عدة سنوات أبحث عن مخطوطات وحكايات توراتية مفقودة. وقادنى البحث لقراءة

مخطوطات مكتبة نجع حمادى، التى عثر عليها كهنة(*) فى مغارة مصر العليا سنة ١٩٤٤ ومخطوطات البحر الميت الشهيرة والخفية، التى عثروا عليها فى وادى قمران عام ١٩٤٧ وقرأت "الميندرا"، وهى تعليقات خطها على مدى قرون حاخامات يهود فقهاء، بهدف توضيح لغة العهد القديم الشعرية، والغامضة أحيانًا، والمتناقضة فى أحيان أخرى.

اكتشفتُ بالتالى أن آدم وحواء، رغم أن حكايتهما ليست إلا أربعين آية فى سفر التكوين، إلا أن تلك الحكاية مع حكاية أبنائهما: قابيل وهابيل، ولبودا وإقليما، تظهر فى عدد هائل من الحكايات والتفسيرات القديمة.

وبعد أن تغذيتُ من هذه القراءات المكتظة بالإلهام والاستدلالات الفانتازية، سلّمتُ زمام أمرى لخيالى ليستحضر فى هذه الرواية الكواليس الخفية لهذه الدراما القديمة، ومناظر الفردوس السوريالية، وحياة الزوجين البريئين والشجاعين والمؤثرين.

ورغم أنى لست متدينة، إلا أننى أعتقد أنه ذات مرة كان هناك امرأة أولى ورجل أول، وأن هذه الرواية من الممكن جدًا أن تكون حكايتهما.

(*) عثر على هذه المخطوطات فى جرة خزفية قروى يدعى محمد السمان أثناء بحثه عن سماد لحقله. وكانت تضم ١٣مخطوطة مجلدة من البردى القبطى. (م).

هذا العمل ـ إذًا ـ خيال مبنى على خيالات كثيرة وتفسيرات وإعادة تفسيرات نسجتها البشرية منذ عصور لا يمكن تذكرها حول أصولنا.

إنها ـ لفتنتها وحيرتها ـ حكاية كل واحد منا.

جيوكوندا بيللى.

وخلق الذكر والأنثى

ـ ١ ـ

وكان.

وفجأة خرج من العدم وأدرك ما كان عليه. فتح عينيه وتحسس جسده، وعرف أنه رجل، دون أن يعرف كيف عرف ذلك. رأى الجنة وشعر أنه مرئى. نظر فى كل الجوانب وتمنى أن يرى آخر شبيهًا له.

وبينما كان ينظر، عبر الهواء من حنجرته وأيقظتْ برودة الريح حواسه. تنفّس بعمق. أحس داخل رأسه بتواتر صور مضطرب فبحث لها عن اسم. انبثقت الكلمات والأفعال بداخله جليةً ونقيةً لتستقر فوق كل ما يحيط به. سمّى الأشياء ورآها بمسمياتها تتعرّف على نفسها. ضرب النسيم أغصان الشجر. غرّد العصفور. فتحت الأوراق الطويلة أياديها الناعمة. أين أنا؟ تساءل. لماذا لايتوقف هذا ذو النظرة التى تراقبه عن النظر إليه؟ مَنْ هو؟

سار دون عجلة حتى أغلق دائرة المكان الذى مُنح إليه ليسكنه. كان الاخضرار وأشكال الخضرة وألوانها يغطى المنظر ويخترق عينيه فيثير بهجةً فى صدره. سمّى الأحجار والجداول والأنهار والجبال والوهاد والكهوف والبراكين. نظر إلى الأشياء الصغيرة حتى لا يهملها: النحلة والطحلب والنَفَل. كان الجمال يبلبله أحيانًا فلا يستطيع الحركة: الفراشة والأسد والزرافة، ونبْض قلبه المستقر يصطحبه كأنه، بعيدًا عن الرغبة والمعرفة، قد خُلِق على إيقاع لم يُمنح إليه التنبؤ بالحكمة من ورائه. بيديه اختبر سخونة أنفاس الجواد وبرودة الماء المثلجة وخشونة الرمل وزلق حراشف الأسماك ونعومة فروة القطط. ومن حين لآخر كان يصرخ بغتةً متمنيًا أن يدهش الآخر صاحب الحضور الأخف من الريح رغم أنه يشبهها. إلا أن ثقل نظرته كان مؤكدًا. كان آدم يشعر بها فوق بشرته كما يشعر بالنور المتواصل الذى يحيط بالجنة باستمرار ويضىء السماء بأنفاس متلألئة.

جلس الرجل على حجر ليشعر بالسعادة ويتأمل كل شىء، بعد أن فعل كل ما يُفترض فعله. جاءه حيوانان، قط وكلب، وجلسا تحت قدميه. ورغم جهده فى تعليمهما الكلام، فقط استطاع أن يجعلهما ينظران إلى عينيه برقة.

فكّر أن السعادة طويلة ومرهقة قليلاً. لم يستطع لمسها ولم يجد وظيفة ليديه. كانت العصافير سريعة جدًا وتطير عاليًا جدًا. كذلك السحاب. كانت

الحيوانات ترعى حوله وتشرب. وهو كان يتغذى على بتلات بيضاء تتساقط من السماء. ولم يكن يحتاج إلى شىء ولا شىء كان يبدو فى حاجة إليه. فشعر أنه وحيد.

وضع أنفه على الأرض وتنفّس رائحة العشب. أغمض عينيه وتأمل دوائر النور المركزية من وراء جفنيه. كانت الأرض الرطبة تشهق وتزفر من تحته محاكيةً صوت تنفّسه. غزاه نعاس حريرى دافئ. فاستسلم لإحساسه. قد يتذكر فيما بعد فَتْح جسده والشق الذى قد قسم كينونته لتخرج المخلوقة الحميمة التى كانت تسكن حتى ذلك الحين بداخله. كان يقدر على الحركة بالكاد. وكان جسده فى تجسده الكريستالى يتصرف من تلقاء ذاته دون أن يتمكن هو من فعل شىء سوى انتظار ما قد يأتى وهو فى شبه غيبوبته. ولو كان هناك شىء يراه جليًا فهو حجم جهله، وعقله أمام ثقل أول نعاس.

استيقظ متذكرًا غيبوبته. تسلّى وهو يتعرف على مهارات ذاكرته، بلعبة التذكر والنسيان، حتى رأى المرأة بجانبه. التزم الهدوء متأملاً صعقتها، تأثير الهواء البطىء فى رئتيها، النور فى عينيها، الطريقة المنسابة التى بها ترقد وتتعرف على جسدها. تخيل ما يحدث لها، الصحو الخامل من العدم إلى الوجود.

مد لها يدًا فدنت بيد مفتوحة. تلامست راحتاهما. قاسا يديهما وذراعيهما وساقيهما. اختبرا

التشابهات والفروقات. أخذها وجال بها فى الجنة. أحس بأنه نافع ومسئول. أراها النمر وأم أربع وأربعين والسلحفاة والراكون غريب الجلد. ضحكا كثيرًا وتقافزا مرحًا وتأملا السحب فى تنقلها وتبدّل أشكالها، وأنصتا لحفيف الأشجار الرتيب، وجربا الكلمات لوصف ما لا يمكن تسميته. هو كان يعرف نفسه بآدم ويعرفها بحواء. وهى كانت تود أن تحيط بكل شىء علمًا.

ماذا نفعل هنا؟ – كانت تسأل.

لا أعرف.

من يمكنه أن يشرح لنا من أين جئنا؟

الآخر.

وأين الآخر؟

لا أعرف أين هو. أعرف فقط أنه يحيط بنا.

وقررتْ هى أن تبحث عنه. قالت إنها قد شعرت أيضًا أنها مراقبة. قد يتحتم عليهما الصعود للأماكن العالية. ربما يعثران عليه هناك. ألا يكون عصفورًا؟ ربما، قال، معجبًا بفطنتها. ودخلا فى وسط شجيرات عطرة وأشجار وارفة ووصلا دون عجلة إلى البركان الأكثر علوًا. صعدا، ومن قمته نظرا إلى دائرة الجنة الخضراء المحاطة من كل جوانبها بغيمة بيضاء كثيفة.

ـ ماذا هناك؟ ـ سألتْ هى.

ـ سحب.

ـ وخلف السحب؟

ـ لا أعرف.

ـ ربما يسكن هناك مَنْ يراقبنا. هل حاولت الخروج من الجنة؟

ـ لا. أعرف إننا لا يُفترض أن نخرج أبعد من الخضرة.

ـ كيف تعرف ذلك؟

ـ أعرفه.

ـ كما كنت تعرف الأسماء؟

ـ نعم.

هى لم تتأخر كثيرًا فى الوصول لخلاصة أن النظرة التى كانت تراقبهما ليست نظرة عصفور. وطائر الفينيق الضخم ذو الريش الأحمر والأزرق الذى كان قد حام فوق رأسيهما كانت نظرته ناعمة مثل نظرات بقية الحيوانات.

أيكون تلك الشجرة ـ غامرت، مشيرة ناحية مركز الجنة ـ انظر يا آدم، انظر إليها. قمتها تلامس السحب كأنها تلاعبها. ربما يسكن تحت ظلها من يرانا أو ربما ما نشعر به نظرة الأشجار. فهناك أشجار كثيرة وفى كل الجوانب. ربما تكون مثلنا غير أنها صامتة وساكنة.

ـ من يراقبنا يتحرك ـ قال آدم ـ لقد سمعتُ خطواته فوق الأوراق الجافة.

هبطا دون عجلة من البركان، متسائلين ماذا يفعلان ليعثرا على الآخر.

شرعتْ هى فى مناداته. واندهش هو من امتلاكها لنبرة عميقة جدًا، نواح هواء فى جسدها الخالى من الأجنحة. وقفتْ على قدميها بجانب النهر وبذراعين مفتوحتين. شعرها الأسود كان مسترسلاً على ظهرها. حرّك عاطفةَ آدم هذا الوجه الجانبى البعيد والكامل، وجه بعينين مغمضتين وفم نصف مفتوح من خلاله كان يسيل النداء. تساءل أليس مضيعة للوقت تخيل آخر مثلهما مختبئًا فى الأدغال، حيث كان مستحيلاً تمييز هذه الشجرة من تلك. لكنه والمرأة على حد سواء كانا يشعران ليس فقط بنظرته، وإنما بصوته يهمس لهما باللغة التى تحدثاها فيما بينهما بإجادة مع مرور الوقت. حد أنهما ظنا رؤية ظله يترصدهما معكوسًا فى حدقتى كلب وحدقتى قط. حدّث نفسه أنه ربما يستطيعان رؤيته فقط عندما تنضج عيونهما وتصير أكثر قِدمًا. كان لديهما ما زال صعوبات فى التمييز بين ما يوجد بداخليهما فقط وما يرانه حولهما. وكانت حواء خاصةً موهوبة للخلط بين شىء وآخر. وكانت تؤكد أنها قد رأت أكثر من حيوان برأس إنسان وصدره، وسلاحف تطير، ونساءً من الماء. ومنذ جاءت إلى جانبه لم تعرف الهدوء. كما لو أنها ولدتْ لهدف، دون معرفة ما هو، يحمّس حركاتها الطويلة والناعمة، ويجعلها تتهادى بجواره وتتمايل وتتدلل كما النخلة يهزها النسيم.

وكان اضطرابها بالنسبة إليه لغزًا يريد حله. مع ذلك، لم يشتق إلى تأمله الهادئ الذى كان يتسلى به قبل ظهورها. وحتى لو أجبرته على الركض من هنا لهناك مثل ظبى صغير، فسماع ضحكتها أو حديثها كان أكثر متعة من الصمت والوحدة.

سمعا ضجيجًا كارثيًا ينبع من جوانب الجنة. شاهدا اشتعالاً متقطعًا لوهجات حمراء وظلمات بعيدة وذيول شهب تعبر من القبة السماوية. فى المقابل كانت السماء فوقهما ما زالت مضاءة كعادتها بنور ذهبى تشتد حدته أو تنخفض دون أى نظام يمكن إدراكه. ارتجفت الأرض تحت أقدامهما، فاقتربتْ حواء منه على أطراف أصابعها وهى تلعب حتى لاتفقد توازنها. ومدهوشًا، ظل ينظر هو إلى أصابع قدمين تنبسط وتنقبض كأنها مصنوعة من أسماك.

لم يكن آدم يتذكر الشجرة التى فى وسط الجنة. كان يبدو له غريبًا ألا يكون قد انتبه لوجودها وهو من يعتقد أنه جال فى المكان من أدناه لأقصاه.

من يرانا لا يريد أن نراه، فبهذه الطريقة يحمى نفسه، لكن ينبغى أن نعثر عليه يا آدم، يجب أن نعرف لماذا يراقبنا، وما الذى ينتظر أن نفعله.

اقترح آدم أن يتبعا مسار نهر. دخلا الغابة الرطبة. امتلأ أنفاهما بروائح قوية ونفاذة نابعة من الأرض الخصبة، التى ينبت فيها كل نوع من السرخس والفُطرة والأوركيدا. هناك تتدلى أعشاش صفاريات

هزيلة ومتشابكة من أغصان عالية؛ حيث كشة العجوز والطحلب تتهاوى فوق رأسيهما كما الدنتيلا. رأيا دببة متكاسلة تنام معلقة من ذيولها. ومجموعات من القردة الصاخبة تطل متقافزة فوق قمم الأشجار. وتابيرات وعصافير وأرانب تقطع خطواتهما أو تتحسس سيقانهما بمودة. ورغم أن دفء قلب الخضرة كان يهبهما الحياة، إلا أنهما سارا فى صمت، مستسلمين لتبخرهما عبر جو ممتلئ بأصوات وأريجات نابعة من قلب فردوسهما الخفى.

الغابة الكثيفة جعلتهما يسيران فى دوائر ويتوهان مرة وراء أخرى، ولكنهما ثابرا. وفى النهاية صبّا فى وسط الجنة. اكتشفا أن هناك أصل السبل التى تتفرع بعد ذلك، وهناك منبع النهرين الجاريين فى الشرق والغرب. ضخمةً كانت الشجرة التى يفيض تحت جذعها الوحل والماء. وفى قمتها تتوه أغصانها بين السحابات، ويمتد جانباها أبعد مما يمكن أن يحيط بهما النظر. شعر آدم بدافع يدفعه للركوع أمام عظمتها. وتقدمت حواء لتدنو منها. حاول هو بشكل فطرى أن يمنعها، فالتفتت هى لتنظر إليه نظرة حسرة.

إنها لا تتحرّك ولا تتكلم ـ قالت:

إنها لم تتحرّك ولم تتكلم بعد، لكننا لا نعرف قدرتها ـ قال:

ـ إنها شجرة.

- ليست أية شجرة. إنها شجرة الحياة.

- كيف تعرف ذلك؟

- بمجرد رؤيتها أدركتُ كينونتها.

- الحق أنها جميلة.

- عظيمة. وأرى أنه لا يجب أن تقتربى كثيرًا.

وفى الوقت الذى رأى أن الشجرة تعوقه، كبحتْ هى بالكاد رغبتها فى لمس جذع الشجرة العريض والمتين، العذب واللامع. جمال كثير كان يخطف الأعين أينما نظرتْ، ألوان كثيرة وطيور وحيوانات مهيبة أراها لها الرجل متفاخرًا، لكنها لم تر شيئًا أجمل من الشجرة. وامتلأ خيالها بالأوراق. أوراق متلألئة رُسِم سطحها بالأخضر المضىء فى تضاد مع ظهرها الأرجوانى؛ حيث تبرز عروق عريضة وواضحة. أوراق تنبع من غصون بلا حصر وممتدة فى كل اتجاه، تمتص النور وتبعثه ليضىء المكان المحيط. وكان قشر الثمرات المستديرة والبيضاء يبرق معلقًا بضوء فوسفورى ترسله الشجرة فى كل جوانب الجنة. وكلما اقتربتْ، كانت حواء تشعر بأنفاس الشجرة العظيمة المثمرة كأنها إثارة مجهولة فى فمها، تيار حياة جارف ترسله لما يحيط بها. فاجأتها، وآدم مثلها، رجفة مبجّلة وترددتْ أمام دفعتها الأولى للمس جذع الشجرة وقضم فواكهها. كانت دانية جدًا وقشرتها الخشبية اليابسة فى متناول يدها لمّا ميزتْ عيناها صورةً توءم، كأنها انعكاس فى بركة: شجرة أخرى

شبيهة تنتصب أمامها، غريبة ومتواطئة. ما كان مضيئًا فى الأولى كان مظلمًا فى الثانية؛ أرجوانية سطوح الأوراق، وأخضر ظهرها، ثمار خضراء وتين غامق. يغلفها هواء كثيف ونور مكتوم وبلا بريق.

كان آدم، الذى كان مختبئًا بينما يراقبها، يلحق بها لمّا دارتْ حول استدارة الجذع واختفت خلفه.

لم يكن يرى المرأة لمّا سمعها تتكلم. تساءل مع مَنْ من الممكن أن تتكلم. حتى ذلك الحين لم يكونا قد التقيا بأى مخلوق آخر يمتلك الكلمات ليعبر عن مشاعر الجسد. فالقط والكلب وبقية الحيوانات كانت تتواصل فيما بينها عبر ألحان بدائية. لو صعقه سماعها، فرؤية الشجرة مكررة فى صورة شبيهة من ألوان معكوسة أدهشه جدًا. ودون ضجيج تتبع همس كلماتها. رآها جالسة فوق جذع ضخم يمتد فى عمق الأرض كأنه أحد حدود ما ظنه انعكاس لما تفكر فيه شجرة الحياة عن نفسها. ربما بدلاً من التكلم تنظر الشجرة لما تتخيله، حدّث نفسه. وكان على وشك الظهور فى الجانب الآخر من الجذع العريض لمّا سمعه. ففكّر أن الآخر سمح فى النهاية أن يُرى، لكن الريبة هاجمته. لم يكن يشبه الصوت بلا جسد الذى كان يعرف همهماته، صوت خفيف كما الهواء يتميز برنينه داخل الصدر. هذا الصوت كان يشبه سائلاً ينزلق على الأرض كأنه يجر أحجارًا. سمع ضحكته. وكان يضحك مثل المرأة. ويقول:

ـ وانتبهتما أننا نراقبكما؟ يا للفطنة! وانشغلتما بالبحث عنا؟ ممتاز! ارتبتُ فى أن ذلك قد يحدث لكنه يسعدنى التحقق منه. لم نستطع كبح رغبة النظر إليكما. كان ذلك مسليًا جدًا.

- أنت لست وحدك إذًا؟ أنت أيضًا لك رفيق؟

- رفيق؟ أنا؟ مممم. لم أفكر بهذه الطريقة.

- لكن، هل هناك أحد آخر؟

- إلوكيم. هو من خلقكما.

- يقول الرجل إننى خرجت منه.

- أنتِ كنتِ بداخل الرجل. حفظك إلوكيم فى أحد أضلعه؛ لا فى رأسه، حتى لا تكتشفى تكبره، ولا فى قلبه، كيلا تشعرى برغبة التملك.

هذا ما قاله الصوت. وواصل هو تصنته.

ماذا وراء هذه الجنة؟ لماذا نحن هنا؟

من أجل ماذا تودين معرفة ذلك؟ لديك كل ما تحتاجينه.

ولماذا لا يجب أن أود معرفته؟ ما المانع أن أعرفه؟

إلوكيم وحده مَن يعرف. وإن استسلمتِ لغواية الأكل من فاكهة هذه الشجرة، أنتِ أيضًا ستعرفين. ستكونين مثله. ستدركين حكمة الأشياء. من أجل هذا أنا هنا، عند أصل شجرة معرفة الخير والشر، لكى أحذرك، لأنك إن أكلتِ ستفقدين براءتك وستموتين ـ وابتسمت المخلوقة بخبث.

تساءلتْ حواء من ماذا خُلِقتْ هذه المخلوقة. كان جلدها مختلفًا عنهما، قزحي اللون ومرن، يتكون من حراشف صغيرة مثل حراشف السمك. كانت طويلة وهيئتها تنساب بانحناءات وضمور حتى تنتهى بسيقان وأذرع طويلة ومرنة. وكان يبرز فى وجهها الأملس شبه المسطح عينان ذهبيتان وفطينتان ومسحوبتان، وشق فم مستقيم يعكس انطباعًا بانبساط ساخر وجرأة. وكان رأسها مكسيًا بريش أبيض بدلاً من الشعر.

هو يفضّل أن تبقيا هادئين وسلبيين، مثل القط والكلب. المعرفة تولد القلق والتمرد. تجعل المرء يرفض قبول الأشياء كما هى ويسعى لتغييرها. انظرى لما يفعله هو ذاته. فى سبعة أيام أخرج من الفوضى كل ما ترينه. تخيل الأرض وخلقها: والسماوات والماء، والنباتات والحيوانات. وفى النهاية خلقكما، ذكرًا وأنثى. واليوم هو فى راحة. بعد ذلك سيصيبه الملل. ولن يعرف ماذا يفعل وسأكون من جديد من يجب علىّ تهدئته. هو هكذا منذ الأبد. كونًا وراء كون. يخلقها ثم ينساها.

مختبئًا وراء الشجرة، كان آدم ينصت لحوار حواء والمخلوقة، ممتلئًا بالفضول. كان صدره مقبوضًا وأنفاسه متلاحقة. يتذكّر همهمات الآخر وهو يحذره من شىء ما حول الشجرة. لا تقترب. لا تلمس. دون أى شرح واضح لرغبته فى عدم اقتراف هذا. حتى الآن لا فرض له معنى بالنسبة إليه سوى مرافقة المرأة، رغم أنها تعتنى جيدًا بنفسها. الشىء نفسه

يحدث مع الجنة. تنمو النباتات وترتاح على طريقتها دون تدخل منه. وصارت نبرة المخلوقة التى تحدّث حواء مألوفةً له بشكل غامض. إنها النبرة نفسها التى بها يسأل نفسه عن نوايا الآخر. كانت شبيهة بصوت نفد صبره عندما كان يجتهد فى فهم الحكمة من خلقه.

ـ هكذا تعتقدين أن الأمر بهذه السهولة. أقضم فاكهة هذه الشجرة وسأعرف كل ما أريد معرفته ـ قالت حواء:

– وستموتين.

– لا أعرف ما الموت. لا أشغل بالى به.

– لا تزالين صغيرة جدًا لتشغلى بالك به.

– وأنتِ، كيف تعرفين كل هذا؟

– أنا موجودة قبلك بكثير. قلت لكِ إننى رأيتُ خلق كل هذا، ولا أدرك أيضًا ما الحكمة من ورائه. إنه إلوكيم الذى يخرج كل شكل من العدم، ويمنحه أهميته.

– وأنتِ لا؟

– أنا أجده ممارسة بلا فائدة لا تخلو من غطرسة.

– أتعتقدين أننا إحدى نزوات هذا الإلوكيم كما تسمينه؟

- لا أعرف فى الحقيقة. أحيانًا يبدو لى ذلك. فما الحكمة من وجودكما؟ لأجل ماذا خلقكما؟ فى النهاية سيصيبكما الملل فى هذه الجنة.

- يعتقد آدم أننا سنحرث الأرض، سنعتنى بالنباتات والحيوانات.

- ماذا هناك لتعتنيا به؟ ماذا هناك لتحرثاه؟ كل شىء قد صُنع. كل شىء يعمل بكمال ـ وكتمت تثاؤبًا ـ مع ذلك، فآدم وأنتِ، على عكس كل مخلوقات الكون، لديكما حرية اختيار ما ترغبان. أنتما حران فى أن تأكلا أو لا تأكلا من هذه الشجرة. ويعرف إلوكيم أن التاريخ سيبدأ فقط لمّا تستخدمان هذه الحرية، لكن كما ترين، يخشى أن تستخدماها، يخاف أن يصير خلقه فى النهاية شبيهًا له تمامًا. قد يفضّل أن يرى إلى الأبد انعكاس براءته. من أجل هذا يحرّم عليكما الأكل من الشجرة واختيار الحرية. ربما لا تكونان أهلين للحرية. فكما ترين، مجرد الفكرة تصيبكِ بالشلل.

- أفهم من ذلك أنك تريدين أن أقضم هذه الفاكهة؟

- لا. فقط أحسدكِ على إمكانية الاختيار. لو أكلتِ من الفاكهة أنتِ وآدم، ستصيران حرين مثل إلوكيم.

- وماذا ستختارين أنتِ، المعرفة أم الأبدية؟

- أنا حيّة. لا أملك إمكانية الاختيار.

نظرتْ حواء إلى الشجرة. ماذا سيتغير إن تجرأتْ على قضم ثمراتها؟ ولماذا تصدّق الحيّة؟ ومع ذلك لم تتجرأ على فعل التجربة. نظرتْ إلى يديها، وحرّكت أصابعها الطويلة واحدًا وراء آخر وآخر.

سأعود ـ قالت.

ـ٢ـ

بعد أن سبحا ورقدا تحت الشمس، انزوى كل من الرجل والمرأة داخل نفسه. تساءلتْ حواء: فيما يفكّر آدم؟ وتساءل آدم: فيما تفكّر حواء؟

لكن أيًا منهما لم يستطع تخمين أفكار الآخر. ومستلقيَين فوق العشب، كانا ينظران للنمل يشيد عشه، يحمل الأوراق الصغيرة فوق ظهره، ويسير بشكل منظم فى طابور ناحية ثقب فى الأرض اتخذه ملجئًا له. حولهما كانت الخضرة متلألئة، تقطعها فى كل جانب براعم بلون الغصون وأشجار صغيرة تزينها الزهور. وكان النهران اللذان يعبران الجنة ينقسمان إلى أربعة روافد. أكثرها سكونًا، فى جانبهما الراقدين فيه، يشق طريقه عبر مرتفع تستريح فى منحدراته صخور منحوتة وهائلة، خضراء فى رمادية، تجبر التيار على الانكسار والترقق والغناء بين خضرة الصنوبريات وغطاء السرخس الخشن بأوراقه الكبيرة

المسننة. تنفّست حواء رائحة النبات وأحستْ بالنسيم الدافئ يجفف جسدها ويعبر فوقه خفيفًا وممتعًا. أمّا آدم فقد استسلم للإحساس بالريح ورحيق الجنة الكثيف وللمسات الدبة الكبيرة السوداء المزعجة فى الضفة المواجهة. كانت الأشجار تهمهم بلغة الأوراق فوق رأسها. وكنارى فوق غصن صغير كان ينظف ريشه بمنقاره. ومن حين إلى آخر يطلق من حنجرته لحنًا عاليًا وحادًا، كان يبدو أنه يضم أصل كل الأصوات المحيطة به.

ماذا كانت تقصد الحيّة عندما أكّدتْ أن ما أسمته بالتاريخ سيبدأ فقط لمّا يستخدمان حريتهما؟ لماذا قالت إنها تحسدهما على امتلاك إمكانية الاختيار؟ ولماذا قالت لهما إنه لا يجب أن يأكلا من شجرة المعرفة فى الوقت نفسه الذى كانت فيه تحرضها على الأكل منها؟ ما علاقتها بالآخر؟ ما الذى يخاف الآخر أن يعرفاه؟ لم يكن بوسع حواء أن تدرك اللغز. لكن الأهم من كل شىء أنها لم تكن تستوعب لماذا قرّر هذا الإلوكيم أن يؤرقها بهذه الطريقة. لماذا أوحى إليها بوجود الشجرة فى منتصف الجنة، وطبع لها فى عظامها طريق العثور عليها؟ فلولاها ما سار آدم إلى هناك. فلم يكن قد رأى أبدًا هذه الأشجار، حسب ما أخبرها به، معجبًا بفضولها وحدسها الذى قادها إليها. نظرتْ إلى آدم المستلقى على العشب، رافعًا ذراعه ومغطيًا عينيه. صدره يرتفع ويهبط إيقاعيًا. كان الرجل كبيرًا، طويلاً، مستقيم العود، بلا

بروز محددة؛ وحدها رسمات عضلاته كانت تشبه الاستدارات الغالبة على جسدها. سألت نفسها إن كان إلوكيم قد نحته من صخرة جبلية، إن كان قد صنعها هى أصغر حجمًا وأكثر نعومة حتى لا يسبب ألمًا للرجل عندما يُخرجها من داخله. هل تخيل عندما قولبها فاكهةً ما، أو رابيةً ما؟ كانت تتمنى لو تعرف جوابًا.

فكّر آدم أنه يستطيع تقريبًا الاستماع لما يدور بخلدها. ماذا سيفعل ليحتفظ بها بعيدًا عن الشجرة؟ فالانقياد لم يكن فى طبيعتها. أجمل ما فيها عجزها عن البقاء ساكنة، حيويتها التى بها نظرت وسألت عن كل شىء منذ البدء.

أمطرت السماء. ومع المطر تساقطت البتلات البيضاء التى كانا يأكلانها. علّمها هو كيفية نزع ورقة موز والاحتفاظ بها مفتوحة حتى تفيض بالبتلات. ظهر قوس قزح وراء المطر. كان يبدو كجسر بين السماء والأرض، قال، لكنه لم يكن قد رأى أبدًا أحدًا يعبره.

لماذا لم نر إلوكيم وقد رأته مخلوقة الشجرة المسماة بالحيّة؟ ـ سألتْ حواء.

مثير للفضول أنها أسمتْ نفسها بنفسها ـ علّق آدم مفكرًا.

ألا تعتقد أنها هى نفسها إلوكيم؟

نظر إليها آدم مدهوشًا من تفكيرها فى شىء كهذا.

لماذا لا يمكن أن تكونه؟ يبدو أنها تعرف كل ما يفكر فيه الآخر ـ ألحتْ حواء.

ربما هى صورته.

هى قالت إننا نحن صورة إلوكيم.

مثلما شجرة المعرفة صورة شجرة الحياة؟

أظن ذلك.

لكن إن كنا نحن صورته، لا يمكن أن تكون الحيّة هى إلوكيم. فنحن لا نشبهها.

وهل لنا أيضًا صورة؟

لا أعرف يا حواء. أنتِ لديكِ أسئلة كثيرة لا أستطيع الجواب عنها. سأستمر فى بحثى عن الآخر. ابقى أنتِ هنا. ولا تتحدثى مرة أخرى مع الحيّة. اهدئى، فأنتِ مضطربة جدًا.

اقتربتْ هى من حافة الماء وساقتها قدماها إلى أسفل الضفة. كان ماء النهر نقيًا، وكانت بين الصخور تتلألأ حراشفُ الأسماك متعددة الألوان. سمكة كبيرة وحمراء بخياشيم بيضاء فى سوداء تسبح بإتقان نحو منحنى يضم ماءً ساكنًا. تبعتها. صعدتْ فوق الحجر القاتم البارز من البركة وجلستْ تراقب السمكة التى تتحرك بخفة فى العمق دون أن تفسد سكون الماء. فجأة هبتْ فقاعة من القاع، ومنها تكونت عين مَنْ يعرف أين يفتح جفنيه، نظرتْ إليها وفى نظرتها وهبتها، عبر شفافيتها المرتجفة، رؤية صور مدهشة

ومهزوزة كانت هى فيها تقضم التين، ومن هذا الحدث الصغير تنبت حلزونية هائلة من الرجال والنساء الفانين والشفافين الذين يتكاثرون، ويتناثرون فى مناظر طبيعية خلابة، بوجوه مضاءة بإيماءات وتعبيرات لا حصر لها، وكانت بشراتهم تعكس من أول بريق الجذوع الرطبة حتى البتلة الوردية الشاحبة. وكانت حولهم تظهر أشكال وأشياء بلا اسم، يتحركون بينها على مهل وبلا تعجل، شغوفين وفضوليين، مطاردِين حشداً من المناظر التى تتفرع بدورها كاشفةً أعماقًا وطبقاتٍ من الرموز معقدة الفهم يختلفون حول معناها بضوضاء وانسجام مضطرب، لكن صداهم كان يرن فى داخلها كأنها، وهى من لاتعرفهم، تعرفهم. ورأتهم ـ فى جولتها السريعة ذات الدورات المتعاقبة ـ مختبئين ومضطربين يُحرَقون ويتلوون ألمًا، يُنشئون ويسيطرون على حرائق فظيعة يغوصون فيها، مرة وراء أخرى. كانت وجوههم تتجدد بلا تعب فى هذه الحركة المستمرة الخاصة بخلية نحل نشيط وصاخب يتحرك كل منهم مع زوج خفى يومئ، كاشفًا تأثيرات تصدر صريرًا أو يسبحون فى سائل كان يعرضها وفيها أحستْ هى فى الوقت نفسه بنفس الرغبة فى المعرفة التى تستهلكها، تيارات عميقة وحيرات كانت تتمنى لو تستطيع تسميتها. ولمّا أطلتْ على هذا المنظر المحفز والعنيد، ورأت الأماكن المجهولة، وشعرتْ بهمهمة دمها تجيب على مصير ضعيف، أُلهِمَتْ رقة ورغبة أكثر عمقًا من أى شىء كان

قد أثارها حتى ذلك الحين. من المثير للفضول أن الصورة الأخيرة التى ظهرتْ عندما لم يكن الماء قد أنهى سكونه كانت ممتعة جدًا ونقية حد أنها لم تستطع أن تعرف إن كانت هى التى عادتْ لتتعرف على نفسها فى الجنة أم أن لغز نهاية كل ذلك هو إمكانية العودة للبدء.

إنه التاريخ، حدثتْ نفسها. لقد رأته. كان هذا ما سيبدأ إن أكلتْ هى الفاكهة. كان إلوكيم يريد أن تقرر هى وجود أو عدم وجود كل هذا. هو لم يرد أن يكون مسئولاً. كان يريد أن تكون هى من يتحمّل هذه المسئولية.

-٣-

ركضتْ بحثًا عن آدم. لم تجده فى المرج حيث اعتاد أن يعلّم الكلب الطاعة والتكهن بأفكاره. ولم تعثر عليه فى الغابة، ولا عند عودتها لضفة النهر. ولمّا تملكها التعب توقفتْ وجلستْ على العشب. نظرتْ حولها بحنين، كأنها تنظر إلى ذكرى. رأتْ الخضرة والماء والجبال الزرقاء.

أى فرق هنالك بين الصور التى رأتها فى الماء والصور الأخرى التى كانت تتجلّى لها فى مروج الجنة النائية أثناء سيرها بمفردها دون أن تتوسط خطوات آدم الذى بجانبها بينها وبين خيالها؟ كان آدم يُسَمّى صورًا تلك المخلوقات الأسطورية التى تشعر بها بين الجنبات النباتية الكثيفة؛ حيث ينقيها الضوء الذهبى بالكاد: نساء الماء تلعب مع فراشات بضفائر طويلة ووجوه باسمة، وعصافير بأصوات بشرية تناقش العالم مع حيوانات لها ظهر إنسانى، وأوراق ضخمة

تظهر فوقها وتختفى كتابات ملغزة، ومخلوقات هائلة تتغذى على سحابات كثيفة تنزل من السماء، وسلحفاة تبصق نارًا بينما تطارد جسدًا طويلاً جدًا هو جسدها، وتهاجمه كأنه ينتمى إلى أخرى.

على عكس تلك الرؤى ذات اللون القزحى والوهّاج، كانت رؤى الماء مستديرة وجلية، وكان واقعها أكثر قطعًا من واقع الجنة نفسها. وعند رؤيتها، فكّرتْ أنها لم تُمنح فقط مشاركة النظرة الكلية التى تأتى من داخل إلوكيم، بل أيضًا تجربة غزارة الحياة التى تغمره، والتى كان فيضها سيلاً متدفقًا لايُكبَح، ربما يسخر من إرادته نفسها ليتحول إلى خلق، وينبثق من رغبته قبل أن تسنح له فرصة الندم. تلك الرؤى هى مصير الكائنات، التى ربما يحرّكها ما تسميه الحيّة بالحرية، وهى تسعى لتجاوز إرادته الخالقة لتعيش أبعد من هذه الحياة، لكن لتحقق ذلك عليها أن تُبهر إلوكيم مهما تحدى ذلك. من هنا جاءها التحريض على إيجاد هذا العالم. ففضول رؤية هذه الكائنات تخلق نفسها بنفسها وتدمر بعضها بعضًا سيكون شعورًا لا يمكنه مقاومته، وهى مثله.

قد يعتقد الرجل أن الحيّة هى مَنْ تحث هذه الرؤى لتحريض المرأة على معصية أمر عدم الأكل من ثمرة شجرة معرفة الخير والشر. وقد لا يصدّقها عندما تخبره أن كائنات بلا حكاية كائنات قد تظل فى

العدم، إلا إذا تجرأتْ هى وكسّرتْ هدوء الجنة. هما نفساهما قد لا يكون لهما وجود إلا كحلم الحالم المبتكر الذى يتخيل مخلوقات حرة وبعدها يحصرها فى الحياة كما الزهور أو العصافير. كانت طبيعتها تأبى القبول بأن الغرض من خلقها هى وآدم ليس إلا مجرد الجلوس على الصخرة لتأمل تلك الأبدية التى صارتْ مؤخرًا من سكينة إلى انتظار كثيف، والخضوع لمراقبة نظرة الآخر المستمرة التى تحاصرهما. أخطأت الحيّة لمّا فكّرتْ أنهما بقضم ثمرة الشجرة قد يصيران مثل إلوكيم. على العكس. قد يكفان عن كونهما مثله. قد ينفصلان عنه. قد يكوّنان التاريخ الذى من أجله قد خُلقا: قد يؤسسان نوعًا، قد يعمّران الأرض، قد يكتشفان حدود الإدراك والفهم. بمجرد أن تستخدم هى حريتها، قد تستطيع أن تمنح إلوكيم تجربة الخير والشر التى كان يشتاق إليها. لقد خلقهما على صورته وشبهه ليمسكا بزمام الخلق فى أيديهما.

فكّرتْ أنه بدون أن يرى ما مُنِح إليها بتأملها، قد لا يدرك آدم لا لعبات الآخر ولا قرارها. ربما لو خَيّره لاختار البقاء الثابت فى الجنة. قد يكون علىّ أن أتصرف بمفردى، قالت لنفسها. وفى ركن قريب من البركة جلستْ لتستمع لصرير أفكارها. التردد والقرار كانا تيارين متضادين يصعدان ويهبطان فى جسدها. كانت تغمض عينيها وترى صور النهر. لماذا يجب أن تكون هى من يكشف ما يحجبه التحريم؟ ولماذا هى

المختارة لتكسير سراب الجنة؟ مَنْ هو إلوكيم؟ أين هو؟ متى سيكشف لنا وجهه؟

نهضتُ وشرعتُ فى السير ناحية وسط الجنة، ناحية شجرة معرفة الخير والشر، حيث قد تقابل الحيّة.

ـ ٤ ـ

الحيّة ابتسمت ابتسامة عذبة وساخرة لمّا رأتها تظهر من الدغل.

لقد عُدتِ سريعًا - قالتْ لها.

هل هناك جنات أخرى أم أن هذه هى الجنة الوحيدة؟

ضحكتْ الحيّة.

أيمكن أن أعرف سبب هذا السؤال؟

رأيت فى قاع النهر صورًا غريبة إلا أنها تبدو أكثر حقيقية منك ومنى ومن كل شىء. وشعرتُ أن وجودها يتوقف على إرادتى.

وماذا تعتقدين عما يجب عليكِ لتحقيق ذلك؟

يجب أن أستخدم حريتى. أن آكل الثمرة.

ألا تخافين؟

إلوكيم يريدنى أن أفعل ذلك.

ليس هذا ما قاله لى.

أعرف ذلك ولا أفهمه.

ربما يخشى حريتكِ. فرغم أن نية الخالق العظمى أن يخلق تحديه الخاص، لكن لا يمكن أبدًا فهم إلوكيم. لا تستطيعين قول إننى لم أحذرك. فقد تموتين. رغم أننى أوافق على أنه من العبث أن يدمر الخلق بمجرد أن يخلقه.

لن أموت. إنه يتمنى أن آكلَ الثمرة. لهذا جعلنى حرة.

بإمكانك أن تقررى عدم الأكل.

لا. سيكون ذلك أسهل. وليس ممكنًا الآن. فأنا أحتاج إلى المعرفة.

يجب أن تعرفى ـ ابتسمتْ الحيّة ـ والحق أنه صنعكما على صورته وهيئته. هو مَنْ يعرف كل شىء.

وهو من يخاف من المعرفة. لكننى لا أخاف. لقد شاهدتُ أشياءً كثيرة. لماذا شاهدتها إن لم يكن لإدراكها والمجازفة من أجل وجودها؟

ربما لتقبلى بعدم قدرتك على إدراك كل شىء.

شردتْ فى تفكيرها. عبرتْ المرج تحت النظرة المراقبة للجاموسة والفيل، فبدءا فى اتباعها. ولمّا وصلتْ إلى وسط الجنة، عند ساق الشجرة، كانت الحيوانات التى تتبعها كثيرة، يتملكها الخوف والانبهار فى آن. هى نظرتْ حولها. ولم تكن حتى واثقة أن

لديها الشجاعة لفعل ما يمليه عليها ضميرها، لكن ليس أمامها حل آخر. فالجنة بأكملها فى انتظارها.

سألمس الشجرة أولاً. سنرى إن كان حقًا يصيبنى الموت.

انظرى لى أنا من أرقد بداخلها ولم يحدث لى شىء. الموت ليس سهلاً جدًا.

شاهدتُ الموت ولم يرُق لى. ماذا سأشعر إن مُت؟

لن تشعرى بشىء. هنا تكمن المشكلة تحديدًا. أبدًا لن تشعرى مجددًا. فالموت ذات بساطة فظيعة ـ ابتسمتْ الحيّة.

أسرعتْ حواء. عرقتْ يداها. بدا لها أن الهواء يصل بالكاد ليملأ صدرها. مدتْ إحدى يديها. لمستْ براحتها اليمنى خشونة قشرة الشجرة النباتية. فتحتْ أصابعها. سمعتْ ضجيج جسدها الذى كان يخفق كاملاً وهو يريد الخروج من إطاره. أغمضتْ عينيها. واربتْ جفونها. وكانت لا تزال فى المكان نفسه. كانت حية. لم يكن قد تغير شىء. لن أموت، فكّرتْ. سآكل ولن أموت. ومتظاهرة بالشجاعة، اقتربتْ من الغصن الأكثر دنوًا. قطفتْ الثمرة القاتمة، ناعمة الملمس. قرّبتها من فمها وقضمتها. فانتشرت عذوبة ثمرة التين فوق لسانها، وصب لبها الرخو عسلاً بين أسنانها. بدا لها لب البتلات البيضاء المتساقطة من السماء كمادة بلا مذاق مقارنة بالعصير الداخل لجسدها، بعبق الثمرة المحرّمة. وشعرتْ أن الرائحة

تتناثر بداخلها. امتدت متعة عينيها كما الصدى لجسدها. واربت عينيها ورأتْ الحية فى الوضع نفسه. والحيوانات. كل شىء كما كان. أخذت ثمرة أخرى، حلوة. وسال سائلها على ذقنها. استسلمتْ لنشوتها. ألقت ثمرة وأخرى وثالثة إلى الحيوانات، متحدية ومسرورة. فأكلت الحيوانات. واحدًا واحدًا اقترب وشرب العصير من يدها. كانت تود أن تؤكلها جميعها، كانت تود أن تقتسم معها الطعم الجديد، الشعور للمرة الأولى بعمل ما يتطلبه الجسد. الأمر ليس أنها فقط لم تمُت، بل إنها شعرتْ أنها أكثر حياةً. نظرت للفينيق يحلق فوق رأسها. نادته. قدمت له الثمرة. لكن الطائر لم يهبط. طار بعيدًا. ابتعد وهو يصدر نعيبًا حزينًا.

راقدةً فوق جذع الشجرة، كانت الحيّة تتأمّل المشهد دون أن تتجاوز تعبيرها المعتاد بالسخرية والجراءة، ودون أن تشارك فى الجنون الذى وقعت حواء والحيوانات أسيرة له.

اطلع آدم على ما حدث منذ سمع صوت البهجة من بعيد. تيبس جسده. أسرع الخطى. كان يخشى أن يجد نفسه وحيدًا من جديد، بلا صحبة. يخشى أن يصل ويجدها مصعوقة بغضب إلوكيم. شرع فى الركض. وأثناء ركضه كان خواء بارد يثقب جانبه. بدون المرأة لن يكون نفس الرجل، فكّر. إن اختفتْ هى، التى عظمها من عظمه ولحمها من لحمه، سيهيم على وجهه ناقصًا وحزينًا. هو يكاد يكون بلا ماضٍ، وماضيه القليل تملؤه هى.

رأته حـواء وهـو قـادم. وارتجـفتْ عـنـدمـا رأته يقترب راكضًا. نظرتْ إلى العرق اللامع فوق بشرته، إلى ساقيه القويتين، إلى دفع قدميه، إلى نظرته المحذّرة. ضمتْ يديها فوق صدرها. ووقفتْ بمواجهته.

لقد فعلتها ـ قالت ـ فعلتها ولم أمت. أعطيتها للحيوانات ولم تمت. والآن، كُلْ أنت.

مدت له ثمرة التين الناضجة. فكّر الرجل أنه أبدًا لم ينظر إليها هكذا. توسلتْ إليه أن يأكل. لم يرد أن يفكّر. هى كانت لحمه وعظامه. ولم يكن مسموحًا له أن يتركها وحيدة. ولم يكن يرغب أن يبقى وحيدًا. قضم الثمرة. شَعَرَ بالسائل العذب يبلل لسانه، ولب الثمرة الناعم يتخلل ما بين أسنانه. أغمض عينيه ومتعة الإحساس خطفته.

نظر إليها من جديد. رآها من ظهرها. كانت انحناءة خصرها المقوسة تبرز مؤخرتها المستديرة بجمال. سأل نفسه إن أكلها أيكون طعمها بعذوبة ثمرة التين. مد يده ليشعر بالاستدارة الكاملة، واندهش لأنه لم ينتبه من قبل لنعومة بشرتها الرائعة. سحب يده لكن أصابعه كانت لا تزال تحتفظ بالإحساس قويًا جدًا وجليًا حد أنه سبّب له رجفة. التفتت له فمد يده من جديد ولامس انحناءة نهدها. وكانت المرأة تنظر إليه ـ بكل تركيز ـ بعينين متسعتين جدًا.

فجأة هربتْ إلى سمعيهما جلبة الحيوانات. رأيا قطيع الفيلة يدور فى دائرة، وكذلك الجواميس

والنمور والأسود. واستمعا لعدد لا متناهٍ من الأصوات الحلقية، ما بين عواءات وتأوهات لا يمكن فهمها.

نظر آدم إلى حواء. ووجد اضطرابها الأول.

ودت حواء لو يكف عن النظر إليها، فكما قضم الثمرة يبدو كأنه يفكّر فى قضمها هى، وأكلها. سترتْ نهديها.

لا تنظر إلىّ مرة أخرى ـ قالت له ـ لا تنظر إلىّ هكذا.

لا يمكننى تجنب النظر إليكِ ـ رد هو ـ عيناى لاتطيعاننى.

سأغطى جسدى ـ قالت وهى تنتزع أوراقًا من شجرة التين.

وأنا أيضًا ـ قال وهو مدرك أنها كذلك لاتستطيع أن تغض بصرها عن ساقيه ويديه، كأنها أشياء جديدة.

بحثتْ حواء عن مخلوقة شجرة المعرفة. لم ترها فى أى جانب. بدأت فى مناداتها حتى رأتها فوق الشجرة، بالقرب من قمتها.

ماذا تفعلين هناك؟

أختبئ.

لماذا؟

ستعرفين سريعًا. ستعرفين حسب سرعة رغبتك فى المعرفة.

ـ ٥ ـ

كان الرجل يتقدم بخطوات واسعة. وخلفه كانت حواء تسرع خطاها. كان يقول إن عليهما أن ينتظرا مختبئين ما سيأتى. كان خائفًا. هى على العكس كانت تنتظر أن تبزغ المعرفة. حاولتْ إقناعه أن عليهما الخروج بحثًا عن الآخر وإخباره بما فعلا، وطلب أن يخبرهما ما يجب أن يفعلاه لاحقًا. كيف سيفرّقان الخير من الشر؟ هل يكفى أن يأكلا الثمرة حتى يميزا أحدهما عن الآخر؟ وإن لم يعرفاهما؟ انظر فأنا لم أفعل سوى ما يخصنى، عللتْ هى، وعلى إلوكيم الآن أن يفعل ما يخصه، أن يعلّمهما كل ما يمكن أن يصيرا إليه. لكن آدم لم يشأ أن ينصت إليها. قال لها إنه اتبعها فى أكل الثمرة. والآن يجب أن تتبعه هو. كانت الأغصان تطقطق مع خطواتهما والعصافير تحلّق. وكانت الأرض تطلق رائحة المطر. كانت الجنة لا تزال منعشة وسليمة. ضوء الأشجار يتلوّن بالذهبى فى

وسط النباتات المتسلقة والجذوع والأوراق. الحيوانات تلتزم الصمت. والرجل بالكاد يتكلم. هى تنظر لظهره، لخصره المعلق به أوراق شجرة التين المثبتة بنبتة متسلقة. كانت الثمرة قد أيقظت فيها رغبة غريبة أفرزتْ سوائل عذبة، رغبة فى التجول بفمها على بشرة آدم. كانت تشعر بالهواء والأوراق، وتريد أن تلمس كل شىء بيديها. هو لم يكن يقول شيئًا لكنها كانت تراه يتلمس الطريق ويتوقف ليشم. نظر إليها كأنه فى حاجة للاحتكاك بها، لمعرفتها، كأن جسدها قد تعرّى فى التو.

لم يشأ آدم أن يخبر المرأة بما يشعر به. لم يكن قد عثر بعد على طريقة يشرح بها ذلك لنفسه. فمنذ قضم الثمرة صار يفقد تماسكه فجأة. حرمته من السكينة الحيويةُ غير المعتادة لأجهزته. كان يشعر بحمل عظامه، ومرونة عضلاته، وتصميم حركاته السليم؛ كان يشعر بالأرض والتراب والرطوبة فى بطن قدميه. لم يستطع أن يقرر إن كان يفضّل هذا الإدراك الجديد على الخفة المعتادة، إن كان يفضّل بطء وجوده على اتخاذ القرار ووضوح الهدف الذى يقوده الآن إلى مغارة بين الصخور التى اكتشفها فى واحدة من جولاته الاستطلاعية. وأكثر من أى وقت مضى، كان يعرف ما يريد، لكن الخوف يكبح فيضان حيويته. حقًا أنهما لم يموتا. هل ما كانت تظنه حواء حقًا؟ هل تنفّس إلوكيم الصعداء؟

قاد حواء عبر زهور الجريس القرمزية المتدلية فوق المدخل وتخبئه جزئيًا. انسلتْ برشاقة مستسلمةً لصيحة دهشة أطلقتها حين نزلت المغارة ذات الجدران الكوارتزية. جدران وردية وبلورية كانت تتلألأ، مضاءة بنور يتسلل عبر فجوة فى سقف الصخرة. ومن الأعماق كان يأتى خرير ماء جارٍ. يا له من مكان جميل، قالتْ هى بينما تدخل نحو العمق متخطية الحد الذى يصله النور. فقال هو إنه من الصعب على الآخر أن يعثر عليهما هنا. إن كان يعرف كل شىء فسيعثر علينا، ردتْ. نحن - على الأقل - على مسافة ما من الأشجار والحيّة. أستطيع أن أؤكد لك أنه لن يقتلنا. فمنذ وجدنا هنا لابد أنه عرف ما سيحدث. ولو كانت العواقب فظيعة ما خلقنا. سألها كيف تتيقن أن الآخر عندما يجد نفسه معصيًا لن يعيدهما إلى العدم من حيث أخرجهما؟ الشىء الوحيد الذى كانت متيقنة منه أن الآخر ليس بسيطًا لهذه الدرجة. كان يكفى رؤية عمله. يكفى رؤية كيف يتغير كل ما يحيط بهما باستمرار. النباتات والحيوانات. كما لو أن كل مخلوق ليس إلا البداية لمخلوقات أخرى مختلفة، أكثر تعقيدًا. سألتك يا آدم إن كنا سنملك أيضًا أية صورة لنا. ورأيتها. فى النهر. صور لكثيرين مثلنا سيعمرون الأرض، سيعيشون، سينجبون خليقتهم الخاصة، وسيكونون معقدين وملاحًا. رسم آدم ابتسامة. أتمنى ذلك، قال لها. واستسلم للسقوط فوق رمال أرض المغارة الرمادية

والناعمة ومد يدًا ليمسك يدها ويساعدها على الجلوس بجانبه. مرر ذراعه على كتفيها. فاستراحتْ حواء على ناصية صدره. فعلا هذا من قبل مرات عديدة، ناظرين إلى النهر، والمرج، والمطر داخل الغابة، لكن هذه المرة كانت حاجتهما للبقاء معًا، لاحتكاك جلديهما، كان له زخم خاص. توسدت حواء صدره بأنفها. شمّت رائحته. فمرر يده بين شعرها، وشم رائحتها أيضًا.

شىء غريب ـ قالتْ ـ أود لو أستطيع العودة للبقاء داخل جسدك، الرجوع إلى الضلع الذى تقول إننى خرجتُ منه. أود لو يختفى الجلد الذى يفصلنا.

ابتسم هو وعانقها بقوة أكبر إلى صدره. قال لها إنه يود أيضًا الشىء نفسه، لامسًا بشفتيه كتفها. كان يرغب فى أكلها كما أكل الثمرة المحرّمة. ابتسمتْ حواء. أخذتْ يد آدم وحملتْ أصابعه واحدًا وراء الآخر إلى فمها، ضغطتْ عليها ولعقتها. كان مذاق ثمرة التين المحرمة ما زال مستقرًا فوق جلده المالح. نظر إليها مبهورًا بخواطرها، شاعرًا فى أصابعه بدفء ناعم وبسائل فمها كرخوية مائية. أتمتلك حواء البحر بداخلها؟ أيمتلكه هو أيضًا؟ وإن لم يكن كذلك، فما تلك الموجة التى يشعر بها تتكوّن فجأة تحت بطنه، وتصعد من ساقيه فتنفجر فى صدره وترجفه؟ أزاح يده عن الإحساس المزعج وأدخل رأسه بين انحناءة رقبة حواء. فرفعتْ هى رأسها، وتنهدتْ وعند ذلك

ارتجفتْ رقبتها. رأى عينيها مغمضتين ومرر يده برقة فوق نهديها، مفتونًا بصلابتهما، وبلون وملمس الهالتين الورديتين الصغيرتين اللتين تصلبتا فجأة تحت يديه، مثلما حدث لجلد عضوه المتراخى والذى فجأة، كأنه مدفوع بإرادته الخاصة، فقد رخاوته المعتادة لينتصب كإصبع ضخم، ويشير بصواب نحو بطن حواء. تركتْ نفسها بجسدها المشدود تستسلم لرغبتها فى لعق آدم كاملاً. وسريعًا ما أصبحا فوق أرض المغارة، ساقًا فى ساق وذراعًا فى ذراع ويدًا فى يد وفمًا فى فم، يطارد كل منهما الآخر بين تأوهات وضحكات مكتومة، وهكذا اكتشف كلاهما الآخر باللمس وتعارفا وافتتنا دون تسرع بكل ما يطلقه جسداهما فجأة من سوائل خفية وانتصابات غير معتادة، وانبهرا من التأثير الساحر للفم واللسان عند امتزاجهما، كأنهما ممرات سرية يعبر من خلالهما بحر الأول ليرتطم بشاطئ الآخر. ومع كثرة تلامسهما، لم تشبع رغبة التلامس. كانا يتصببان عرقًا يغلى لمّا شعر آدم برغبة لا كابح لها بغرس فرع رأسى منتصب الآن فى وسطه داخل جسد حواء، وعرفتْ هى، مزودة أخيرًا بالمعرفة، أن عليها أن تفتح له طريقًا ليدخلها، فأشار إلى هناك الطرف المفاجئ الذى برز بغتة لآدم من بين ساقيه. أخيرًا دخل أحدهما فى الآخر، وجرّبا سحر العودة ليكونا جسدًا واحدًا. عرفا أنهما فى وضعهما هذا لن يكن للعزلة مكان أبدًا. ورغم غياب الكلمات وسيادة الصمت فى عقليهما، استطاعا أن يكونا معًا ويتبادلا

الحديث دون حاجة لقول شيء. وفكرا أن هذه ـ بلا ريب ـ هى المعرفة التى أخبرتهما الحيّة بامتلاكها إن أكلا ثمرة الشجرة. وبينما يرتجف أحدهما فوق الآخر، عادا إلى العدم وبُعِثَ جسداهما الفائضان أخيراً ليرسما بدء العالم والتاريخ.

-٦-

ونام آدم للمرة الثانية فى حياته. وفى المنام رأى فضاءً هائلاً تبزغ منه الأشواك. كانت الأشواك أشجارًا سامقة ورأسية. ومن كل شجرة يظهر خصر وصدر ورأس، رأس رجل أو امرأة. كان كل واحد من هذه الكائنات نصف الشجرة ونصف البشر يتشبث بذراعيه الممدودتين برجال آخرين ونساء، يشكّلون قمم هذه الغابة المؤنسنة. وكانت الأشجار تتساقط واحدة وراء أخرى فتتهشم. تطقطق وتتهاوى فتطلق تأوهات طويلة. وكان آدم يحلق فوق حشد من نظرات ثابتة تتأمله بعجز بينما ترن فى قلبه أصواتهم الحائرة أمام رعبهم من نهاية لم يدركوها بعد. واصل آدم تحليقه الدائرى دون أن يستطيع السيطرة عليه، كما عجز عن منع تهاوى الأشجار التى تموت.

استيقظ آدم. ومن جانب حواء نهض، وأيقظها. استمع لهبوب رياح انتقامية وعاتية فى الخارج. كانت

الأرض ترتجف. فكّر أنه خفقان رهيف تبرهن به
الأرض على حياتها، لكن قوة الرجفة المعادية التى
نفضتهما أريكته، كأنها تريد هلاكهما. نظرتْ إليه
حواء بذعر، بينما كانت المغارة التى تعانقا فيها منذ
قليل تبدو كأنها تُعتَصَر بقبضة هائلة. سقطتْ قطع
من الكوارتز الوردى والبلورى، وتفتت عند سقوطها.
صارا محاطين بأحجار عدائية وغبار. وكان عالم
الكوارث والمذنبات التائهة، بدويه المتسرب من حين
لآخر إلى أمسياتهما، ينفجر بغتة من تحتهما. يا آدم،
يا آدم، أيكون هذا عقاب أكل الثمرة؟ لقد رأيتُ أيضًا
ذريتى، صاح هو. سيعيشون، لكنهم سيموتون بذنبنا،
سيتساقطون مثل القطع المهشمة واحدًا وراء الآخر،
قال شاكيًا. حاول النهوض والسير، فما ساعدته قدماه
على التوازن. سقط مرة وأخرى. وظلت جدران المغارة
تلقى بأحجارها حتى تهاوت. غلّفتهما سحابة غبار
قاتمة أجبرتهما على مواربة عيونهما. بذراعيها غطتْ
حواء رأسها. حاولت السير مثل آدم، ومثله وقعت فى
كل محاولة. فكّرتْ فى أنهما سيموتان الآن، وسيحدث
كل ما تنبأت به الحيّة. وعلى أربع، استطاع آدم
الزحف مسافة قصيرة. قال لحواء أن تفعل مثله
وتتبعه. مثل حيوان، فكّرتْ. وعلى أربع مثل حيوان
تبعته. لم تتوقف الأرض عن هديرها وترنحها. وقع
حجر فوق ساق آدم. صرخ هو من الألم فاقتربتْ هى
منه واستطاعت رفعه عنه. نزفتْ ساق آدم. ولم يكونا
قد رأيا الدم من قبل. نظرا إلى الجرح. الأحمر المتقد

كان يسيل مثل رافد نهر فوق الجلد. علينا أن نخرج، قال آدم. وكان عليهما الخروج من هناك قبل أن تنهار جدران المغارة. عيناى مفتوحتان جدًا وتأكلاننى، فكّرتْ حواء. أشعر بالخوف. وزاحفين على أربع خرجا من المغارة. كانت السماء بالخارج معتمة، وغبار رمادى كان يتساقط فوق الأرض، ومطر صلب يجرح البشرة. بالكاد تمكنا فى الفوضى، فى اضطراب الجنة، من رؤية الحيوانات تركض وتصرخ. كانا يسمعان طقطقة الأشجار المنتزعة من جذورها، وضجيج كارثى حوّلهما بغتة إلى مخلوقين صغيرين وضعيفين، مكسورين ومذعورين. وعلى أمتار قليلة منهما، انشقت الأرض بضربة خفية. أغمضت حواء عينيها وصرختْ بكل قوتها، ظنًا منها أن رنين صوتها ربما يُسكت ضجة الروح الغاضبة التى تبغى تدمير كل شىء. آدم ضغط على قبضتيه وقال لها اصمتى. إنها هى، فكّر. هى وفضولها. سحبها وتسرسبا لأبعد ما فى وسعهما عن الهاوية التى كان يفتحها من الثغرة دوىٌ يجلب الصمم. بدفعات وجلبات كانت الأرض تتفتق كأن شعاعًا خفيًا وكلى القدرة يشقها، صانعًا هاوية عريضة. ما ترغب حواء أن ترى ما تراه: الجنة تبتعد عنهما وتلفظهما. رأتها تستقر فى الجانب الآخر من الهوة العريضة والعميقة لمّا توقفتْ الأرض عن الارتجاف. رأتها تعود إلى سكينتها، إلى ضوئها المذهب، كأنها جزيرة غريبة فى الأرض. صاحتْ حواء لنفسها أنها ما فكّرتْ أبدًا فى فقد الجنة، ما فكّرت أبدًا أنهما سيبقيان خارجها، منفصلين عنها، مستبعدين منها.

فجأة شعرا باهتزاز مائى، كأن موجة تحت سطح الأرض تهز الصخور التى كانت منذ قليل صلبة وراسخة. وفجأة ظهرت مخلوقة طويلة وغريبة ذات بدن مستدير وجلد حرشفى، تزحف على الأرض. حواء تعرفتْ على الوجه والعينين.

أأنتِ؟

إنه مسخنى لهذه الهيئة. لكن غضبه سيمر. فعندما يغضب يفعل أشياءً بعد ذلك ينساها. ولحسن الطالع، عندما يتذكر يتوب ويصلحها. ما فعله بى لن يدوم، لكن بالنسبة إليكما سيطول الزمن. ولن تستطيعا العودة إلى الجنة.

أنتِ المذنبة ـ قال آدم لمّا عرفها ـ لقد خدعتِنا. أقنعتِ المرأة وهى أقنعتنى.

لقد استخدمتما حريتكما ـ قالت الحية ـ وهذا ما كان يجب أن يحدث.

وماذا سنفعل الآن؟

ستعيشان وتكبران وتتناسلان وتموتان. من أجل هذا خُلقتما، من أجل معرفة الخير والشر. ولو لم يرغب إلوكيم أن تأكلا الثمرة ما منحكما الحرية. غير أن جرأتكم فى تحديه جرحتْ كبرياءه. لكن غضبه سيمر. هو فقط يطردكما الآن مخافة أن تأكلا من شجرة الحياة فلا تموتان أبدًا. إنه يريد أن يمتلك سلطة خلودكما.

كان ينبغى أن تخبرينى أيضًا بأكل هذه الثمرة، فبذلك كنا سنتجنب الموت ـ وتنهدتْ حواء.

طرقعتْ الحية لسانها. فكتمتْ حواء إيماءة اشمئزاز لمّا رأت لسانها مقسومًا نصفين.

أنتِ عنيدة ـ قالت ـ لكن لا تظنى أن الخلود هدية. سيكون لكما حياة عابرة، لكنكما لن تملا بالتأكيد. ولأنه لا حياة أبدية لكما سيتوجب عليكما التناسل والبقاء، وهذا سيشغلكما. والآن يجب أن أرحل، قبل أن ينتزع منى ملكة الكلام. لقد فعلها أكثر من مرة. امضيا فى هذا الطريق. وستجدان مغارة.

عادتْ الأرض ترتجف وتنتفض من جديد. وفى السماء كرات نور متلألئة ومدوية كانت تنفجر. واختفت الحية فى خفة فى طرفة عين، زاحفة بين الأعشاب.

نظر آدم إلى المرأة. استند كل منهما إلى الآخر محاولاً حفظ توازنه. مترنحين، بحثا عن ملاذ فى إحدى الأشجار. وهناك تشبثا بجذع حتى لا يسقطا. عينا حواء المفتوحتان جدًا تجولتا هنا وهناك، دون أن تثبتا على شىء محدد. اشتم هو رائحة خوفها، وجرّب الريب للمرة الأولى، وفزع ألا تعرف ماذا تفعل، وأين تذهب. لو تتوقف فقط الأرض عن الارتجاف، فكّر. وانزلق مع حواء إلى الأرض. وعانقها. وكما كان يرتجف، كانت هى مثله، وكانت متكورة على نفسها، برأس مُخبأ بين ركبتيها. وسمعها تتوسل الأرض لتهدأ.

-٧-

لمّا أنهتْ الأرض انتفاضها واستطاعا النهوض، أطلا على الهوة التى فصلتهما عن الجنة. حينها اختفى النقاء الذى كان يتلألأ فوق رأسيهما لتحل محله سماء رمادية، غريبة ومعتمة، وشبه ظلام بارد وأصفر، تسبح فيه سحابات مغبّرة. نظرا إلى الشق وحاولا أن يجدا فى وسط الغبار الكثيف ممرًا ما يعودا من خلاله إلى الجنة، لكن الهاوية كانت تحيط بها. ركع آدم، وضع جبهته فى حصى الحافة وضرب الأرض بقبضته عندما هرب منه أنين غضب ويأس. نظرت إليه حواء مصدومة. لم تجد تفسيرًا للكارثة، ولا لرد فعل إلوكيم العنيف. أيكون هذا الغضب العظيم عاقبة لتجرؤهما على أكل الثمرة أم لمعرفة آدم وهى ما اكتشفاه فى المغارة؟ هل طردهما لكيلا يرى ما يخرج منهما، ما رأته هى فى النهر؟ ربما آلمه أنهما عندما خُيّرا، هى وآدم، قررا اختيار ما لا

يعرفانه. لا شك أن الجنة كانت جميلة (أى جمال!) وأنه تعهد ألا ينقصهما شىء.

لم أظن أبدًا أنه سيطردنا ـ قالت بصوت عالٍ.

وماذا ظننتِ يا حواء؟ ماذا ظننتِ؟ - سأل آدم، ناظرًا إليها من جديد وهو يعاتبها.

لقد أخبرتك من قبل. إنه كان يريد أن آكل الثمرة. وهذا ما أشعرنى به. يريد أن يعرف ماذا سنفعل. لهذا جعلنا حرين. هذا ما ظننته.

وهل ظننتِ أن كل هذا قد يحدث فى الجنة؟

ظننت أن الأرض بأكملها ستكون جنتنا.

نظر إليها آدم بحسرة.

كنتِ مخطئة ـ قال.

ما زلنا لا نعرف الغيب يا آدم. ربما نجد ما رأيتُه. فإلوكيم يعرف ما يفعل.

رسم الرجل ابتسامة ساخرة وكئيبة. ماذا يمكن أن ينتظر منها سوى الفضول؟ كم ستكون سعيدة لو ترد هكذا على شكوكها. هو فى المقابل كان يشعر بالعجز، بأنه يفيض خوفًا وندمًا. ولم يكن يود أن يتحرك من هناك. كان يتمسك باحتمالية أن يعيد إلوكيم النظر فيهما ويسمح لهما بالعودة.

أعتقد أن علينا أن نطلب من إلوكيم المغفرة، أن نسجد حتى يسمح لنا بالرجوع.

شعرتْ حواء بضيق آدم في باطن قدميه، في راحتي يديه، وفي سحابة ماء عكرة تكومت في عينيه وبدأت تسيل على خديه. شعر هو بدفء المرأة في ظهره وبرطوبة دموعها. نهض ببطء وفي وضع القرفصاء نظر مرة أخرى إلى الجنة. كانت تسبح من بعيد في جو واضح وغير واقعي. ومن بين أغصان شجرة الحياة، الملتفة والوارفة، كان ينبعث ضوء مذهب وهادئ كان يضيء لهما حتى ذلك الحين. تساءل إذا ما كانا يستطيعان البقاء، إذا ما كان كل ما حدث ليس سوى خدعة من إلوكيم بكل بساطة، مجرد سراب ليجبرهما على الشعور بالنوستالجيا. افترقت عنه حواء ودنتْ جدًا من الهاوية. وبمجرد تبدد الدخان الكثيف المنتشر في الفضاء، كان محيط الفردوس يتضح بكل جلاء. هكذا صار ممكنًا لها رؤية الطرقات التي جالاها مرات عديدة، والنباتات، والأشجار التي يعرفان أسماءها. وكانت تسمع ضجيج النهرين اللذين يصبان من أعلى الهاوية، بعد أن صارا بلا مجرى. فعادتْ إلى جانب آدم.

أعتقد أن إلوكيم لم يرغب بعد في الاستماع إلينا ـ قالت له وهي تملّس على يده ـ لقد انتهى في التو رجف الأرض. ينبغي أن ننتظر حتى يجتاز ضيقه. لماذا لا نقترب لنرى ماذا هناك حيث تغرق السماء؟ انظر إلى الغبار الذي بدأ في الزوال. هيا يا آدم، سنفعل بعد ذلك ما تقوله.

وافق آدم على فكرتها بخضوع. وشرعا فى السير تاركين الجنة وراء ظهريهما. من خلال فجوات مفتوحة شديدة النقاء وسط الغبار، كانا يلمحان سهلاً عريضًا ومجعدًا لأرض ضاربة للحمرة ومكسية بعشب أصفر تقطعها من هنا وهناك مجموعات من أشجار النخل والأرز. وفى أحد جوانب المنظر، كانت هناك جبال منحدرة ذات صخور حادة تنبت من الأرض شاهقة وجافة. كان هناك تشكيل صخرى على مسافة استحال عليهما تحديدها. وصفائح حجرية هائلة كانت تبرز على السطح كأنها مطرودة من منطقة معتمة. كانت الصخور الأبعد تنتصب فى شكل تل حتى تشكّل جبلاً غريبًا ومنفردًا يعلوه بقعة مكسية بخضرة سميكة ومتنوعة يسير فيها الأخضر بشكل ثعبانى حتى يضيع فى أطراف السهل حتى أقدامهما. لا يبدو المشهد جديدًا، وإن كان يبدو متعبًا، محطمًا، موجوعًا. صعقتهما ضخامة أبعاده والتعسف الذى به كانت الصخور تنتشر والأعشاب والنباتات تنمو وتتوزع بطريقة مختلفة عما عليه فى الجنة. أيكون إلوكيم من أعد كل ذلك؟ تساءل آدم، مدهوشًا من وجود منظر حزين جدًا وعدائى هكذا بالقرب من الجنة. وبجانبه، كانت حواء تتقدم وتحاول تهدئة شعور بأنها فجأة صارت صغيرة. كانت تشعر أنها ضئيلة وضعيفة. تأكلها عيناها وتحكها أنفها.

ماذا يحدث هناك حيث تنتهى السماء يا آدم؟ أهناك هاوية أخرى؟

إنه الأفق ـ قال هو ـ انظرى لحركته بينما نسير.

نظرتْ حواء إلى السحابات. إلى أين تذهب؟ فكّرتْ، ولم تكن قد طرحتْ هذا السؤال أبدًا من قبل، عندما كانت تراها تدور فوق رأسها وهى مستلقية بجانب النهر فى الجنة.

خطوات كليهما توجهتْ دون اتفاق مسبق صوب بقعة أشجار الصنوبر الخضراء. توقفتْ حواء فى مكان ومكان آخر. التقطت من الأرض أحجارًا وأعشابًا صغيرة. شمّتها. فى شجرة الحياة فكرتْ وفى شجرة المعرفة، شجرتان شبيهتان جدًا ومتناقضتان فى الوقت ذاته. الأرض أيضًا خارج الجنة لها ملامحها، لها روائح تذكّرها بالفردوس، ومع ذلك، كل شىء فى تلك المروج يبدو كأنه يتذبذب بين الألم مثل الذى سببته لها الأحجار فى بطن قدميها أثناء سيرها، أو ببساطة إبراز أغانيها الحادة وصلابتها عندما مالت والتقطتها وتأملتها فوق راحة يدها.

هل يكمن الخير والشر فى كل ما يحيط بهما؟ تساءلتْ. ارتعشت لما مدت يدها لتلمس زهرة برية زرقاء وكاملة. بها أشواك! لم تتخيل أبدًا أن من الممكن أن تجرحها زهرة.

شاهد آدم حواء وهى تراوغ أحجار الطريق. هو أيضًا كانت الأحجار تعوقه وتضطره للقفز ليتفادى الوخز الذى يتسلل من ساقيه إلى صدره دون أن

يعرف كيف ذلك. فمنذ شرعا فى الابتعاد عن الجنة، وصار نفس الجسد الذى كان يمنحه المتعة منذ قليل، لا يتوقف عن تحريك أحاسيس لا عد لها لم يستطع إدراكها ولا قمعها. وكان الغبار المتطاير فى الجو يحرق حنجرته، والنور الرمادى يلتصق بلحمه فيسبب فى جلده اختناقًا وماءً مالحًا. هكذا انبثقت فى وعيه كلمات جديدة مثل الألم والعرق، فأسمى بها تلك المضايقات المحيّرة.

وبينما كانت حواء تبتعد من جانبه لتلمس أشجارًا غير معروفة وأعشابًا وأزهارًا صغيرة، كان هو لايتوقف عن الالتفات خلفه بحنين إلى الجنة ويردد لنفسه سؤالاً بضيق صدر إذا ما كانت ستنتهى فورة غضب إلوكيم وطردهما وتركهما عاريين ووحيدين فى هذا المشهد الموحش والمتسع جدًا.

فى منتصف الطريق، شاهد آدم صقرًا. كان يحلق بعيدًا بشكل دائرى. والحيوانات، فكّر. كان قد نسيها. أين هى؟ وماذا حدث لها؟

كانت السماء البيضاء والكثيفة ثقيلة على ظهره. تساءل إذا ما كان هذا النور الشاحب أبديًا مثلما كان نور الجنة المذهب والدافئ. أجبره شعوره بجلده المتصبب عرقًا وبالحر المتقد فى جسده على السير ببطء. كانت حواء أيضًا تتصبب عرقًا. لمعان جسدها المبلل جذب آدم. فدنا منها ومرر يده على ظهرها وذراعيها. لاحظ ما اكتسبته من لون مائل للحمرة

وتساءل إن كان لون الأرض قد انعكس عليها. ورغم أنهما لم يتوقفا عن السير، إلا أنهما بالكاد اقتربا من الخضرة البعيدة. كانت حواء تنصت للريح. من أين تراها تأتى؟ إنها مثل إلوكيم، غير مرئية لكنها موجودة. ظنتْ أنها تسمع ضحكات. وفكّرتْ أنها ضحكات الآخرين الذين ستراهم. لم تكن تعتقد أنهما وحيدان فى فضاء رحب كهذا. ففى مياه النهر كانت قد رأت كثيرين. سمعتْ ضحكًا من جديد. وقفتْ. وأشارتْ إلى آدم ليقف.

أتسمع هذا؟ شخص ما يضحك.

إنها الحية. لابد أنها تسير من هنا.

نظر الرجل إلى أعلى. كانا قريبين جدًا من تشكيلات صخرية غريبة تنبثق من الأرض ككتل أحادية وضخمة، وكانت جدرانها تتماهى من الوردى المنطفئ إلى البرتقالى. الآن يسمعان الضحكة أكثر نقاءً. وليس لها رنين الحية. ركض آدم صوب الصخور حيث ينبع الرنين. وتبعته حواء. شاهداها بارزة فى أعلى أحد الجروف. إنها ضباع. عددها ستة أو سبعة. ابتسم الرجل. وتذكّر هذا الاسم يدور فى خلده، ويتكوّن فى فمه. ولأول مرة يربط رنين الضباع بضحكته الخاصة. ناداها. والحيوانات تقترب دومًا ممن يناديها. لكن الضباع لم تستجب. كانت تشتم الهواء. ورنين ضحكاتها يتقطع بشخير مبحوح. نظرتْ إليهما وتحركت بقلق. رأت حواء إحداها تشرع فى

النزول. ودون أن تعرف سببًا شعرتْ ببرد فى ظهرها.

ـ إنها لا تعرفنا يا آدم ـ قالت، بحذر وبصدر مقبوض ـ لا تناديها مرة أخرى. هيا من هنا.

نظر إليها آدم باستغراب. واستنكر قلقها بإيماءة تؤكد سيادته على الحيوانات. وناداها من جديد.

تقهقرت حواء خائفة. وهبط ضبعان من الجرف. بينما البقية ظلت تدور عاليًا كأنها لا تعرف ماذا تفعل، تدور مضطربة وتصدر أصواتًا غريبة ومزعجة.

وضاربًا بتحذيرات المرأة عرض الحائط، راح آدم ليقابلهما. وعلى بعد خطوات قليلة، مد يده ليلمسهما، كما اعتاد أن يفعل مع أى حيوان فى الجنة. حينها فقط انتبه لمدى التغير الذى حدث. فالضبع الأكثر جرأة انكمش على نفسه واندفع بقفزة على آدم، فخربشه ومزق يده. كانت هذه إشارة حتى تهبط بقية الضباع مهرولة من فوق الصخور. صرختْ حواء قدر استطاعتها، ومالتْ على الأرض والتقطت حجرًا، رمته بكل قوتها على قطيع الحيوانات. فتوقفتْ الضباع مصعوقة من هول الصراخ ومذهولة من الرجمات.

اتبّع آدم فعل حواء، وبدأ كذلك فى رمى الحجارة، وفى الوقت نفسه كان يتقهقر مرتجفًا.

وكانا مصعوقين مما حدث، وضحية ضيق ملأ قلبيهما، شرع الرجل والمرأة مدفوعين بالفطرة فى الركض بأقصى سرعة فى تجاه الجنة.

قبل وصولهما بقليل لاهثين، بوجهين شاحبين يتصببان عرقًا، أمسك آدم حواء من كتفها.

سنطلب المغفرة يا حواء. سنسجد ونتوسل إلوكيم ليسمح لنا بالعودة. عليكِ أن تعدينى ألا تعاودى مرة أخرى كرة الأكل من الثمرة المحرمة.

لن أفعلها مرة أخرى ـ قالت، موافقةً ومستعدة لفعل أى شىء يجنبها نظرات الرجل المختلة والرعب الذى ينفض ساقيها.

لم نعرف بعد كل ما يعرفه إلوكيم. فليس لديه إذًا ما يلومنا عليه. نحن لم نتغير.

نظرتْ إليه حواء. لم ترغب فى أن تخبره بأن شيئًا من التلألؤ الذى كان يشع قبلاً قد بقى، ولا حتى تضاءل أمام الأعين. وما ودتْ أن تفكّر فى الصوت المتهدج الذى كان يخترق رئتيها برفقة الهواء. ثقل خوفها وجريها المسعور هربًا من الضباع، كانا يعوقان تنفسها. إنه محق. أفضل شىء هو العودة، التوسل والتذلل.

سجدا على حافة الهوة العميقة المفتوحة والتى بداخلها صار الجو الآن صافيًا، وفى عمقها كان يمكن رؤية كم من الصخور الحادة والناعمة. لمحا على الجانب الآخر قمة شجرة الحياة المبهرة. استنشق آدم الهواء بعمق. فكّر أن لو كان بإمكانه القفز ليعبر للجنة، ما خرج من هناك مرة أخرى. وساجدًا بجانب حواء، بفم يلامس رمال الأرض، أعلن توبته بأعلى

صرخاته، وبكل كلمات الحسرة والتضرع التى تمكن من معرفتها. واتبعته حواء وهى تشعر بالخزى والضيق، وبصوت عال حد أنها شعرت بنفاد حرقتها فى تضرعها هذا.

هبة ريح خرجتْ فجأة من الهاوية، أحاطتْ بهما وأشعثتْ شعريهما، جردتهما من الأوراق التى كانا بها يستران عورتيهما. وأمام أعينهما تجسّدت الريح، صارت مادة متقدة وحادة، ورقة حمراء وبرتقالية ضخمة تطول وتقصر، تتفرقع تحت أقدامهما، تفوق فى لهبها وفظاعتها الحر الذى عرفاه من قبل. لسان النار انقض عليهما، لعق بطن أقدامهما وراحات أياديهما، شيّط شعريهما، جلدهما بسوطه. واستطاعا أن ينهضا، وشرعا فى الركض، متقهقرين. ودون توقف ولو للحظة، طاردتهما النيران، دفعتهما بقسوة عبر السهل بأكمله حتى ساقتهما صوب جبل يبرز وسط تكوين صخرى. وبذراعين فوق الرأس، حاميًا كل منهما نفسه قدر استطاعته، وبأقدام متسلخة وموجوعة، وصل آدم وحواء إلى السفح وصعدا بكل كلل بينما النار تلحق بهما قريبةً. وفى وسط أشجار صغيرة وشوكية، لمحا مدخل مغارة. وكما ظهر لهب النار فجأة، انطفأ فجأة وبصوت أصم. حينها أدركا أنهما قد وصلا إلى ملاذهما فى هذا المنظر الكريه حيث سيُنفيان. وآوى كل منهما فى حضن الآخر لمّا انتابه الخوف، وارتجفا بدموع لم يستطيعا كبحها.

هذا برهان على القوة قد يشبه فى عظمته الخلق ـ قالت الحية، التى ظهرت فوق صخرة بجانبهما ـ وبرهان على أنهما فكرا فى أكل ثمرات فحسب.

ولماذا لم أفكر فى الأكل من شجرة الحياة؟ لماذا لم تأمرينى أن أفعل؟ لماذا؟ لماذا؟- قالت حواء بنهنهة.

حالمة أنتِ لو ظننتِ أن إلوكيم كان سيسمح بذلك. فما زالت الحرية الممنوحة لكما لها حدود.

الضباع هاجمتنا اليوم ـ قال آدم ـ ماذا سيحدث لو فعلتها حيوانات أخرى؟

عليكما أن تميزا بين من تثقان فيها ومن لا. فالحيوانات ستبدأ تشعر بالجوع.

وما هذا؟ ـ قالت حواء.

جوع وعطش. ستعرفانهما. وستعرفان ماذا ستفعلان. مع مرور الوقت ستتنبهان لكل ما تعرفانه. فالمعرفة بداخلكما. فقط عليكما العثور عليها. ادخلا مغارتكما. استريحا. فقد كان نهاركما ثقيلاً.

نهار؟

نهار وليل. إنها مواقيت دقيقة خاضعة لدوران النجوم. استريحى يا حواء. وكفى عن السؤال.

- ٨ -

كانت المغارة رحبة، وصخورها المسطحة والمتعرجة ناتئة من جدرانها، تاركة فى الوسط مكانًا مكسيًا برمال غامقة وناعمة. كانت الجوانب مقوّسة إلى أعلى مكوّنةً قبة يخترقها ثقب يعبر النور عبره. وبعد لهيب النار وشروق النهار، أثلجت صدرهما رطوبة داخل المغارة وشبه ظلمتها.

ارتمتْ حواء فوق حجر مسطّح. فنظر آدم إلى ظهر المرأة. ساقان طويلتان وقدمان مضمومتان إلى صدرها. كانت تبدو كأنها بتلة زهرة. ورغم التكهن بموتهما يوم أن يأكلا من الشجرة، ما زال يشعر أنه جسدى ونشيط بشكل مكثف كما كان بعد تذوق الثمرة. فقط خوفه من عقاب آخر مفاجئ ووحشى كان يعوقه عن الدخول فى المرأة من جديد والانتظار بداخلها حتى يسكن الاضطراب والحزن الذى يحاصره. بدأت حواء تترجاه أن يشرح لها كيف يميز

الحياة من الموت ولم يستطع فعل ذلك دون لمسها. هكذا تجيَّش الأحاسيس المتبادلة، الجديدة منها والموجعة، لم يسمح لها بالتفكير.

لم أشعر أبدًا بهذا الألم فى قدمىّ وفى جلدى. فمى ممتلئ بالرمال، وحنجرتى تحرقنى. ألا تعتقد أن هذا هو الموت؟- تأوهت حواء بلا سلوى.

الموت عكس الحياة ـ قال هو ـ أنتِ تحسين بكل هذا؛ لأنكِ على قيد الحياة. هذا ما كنتِ تريدينه يا حواء، أليس كذلك؟ ـ سمع نفسه يردد ذلك رغمًا عنه بينما يجلس بجانبها ـ كنتِ تريدين المعرفة. هذه هى المعرفة: الخير والشر، المتعة والألم، إلوكيم والحيّة، لكل صورة انعكاسها المناقض.

أعرف أننى حى من خلالها، فكّر. ورغم أن جسديهما ما عادا يشعان نورًا، ورغم أن جسديهما تضاءل حجمهما واختفت الطبقة الرقيقة التى كانت من قبل تستر عورتيهما الظاهرة، إلا أن شعور الرغبة فى لمسها كان يمنعه من خلط الموت بحزن الهجر العميق. سمعته حواء. وكانت كلما نظّفت عينيها، كانت المياه تعود مرة وأخرى لتملأهما. لم يكن بوسعها الرجوع إلى السكينة، إسكات يديها وقدميها وفمها. وصَبَغَ الألم كلماتها. خدشات وجروح وحروق. ربما كان جسد آدم أكثر صلابة. أو ربما لا يصل الألم إلى أعماقه فلا يعدى تفكيره بالأسى. هى كانت تشعر أن جروح جلدها تنقل لهيبها إلى فراغ مفتوح فى داخلها،

إلى هاوية تشبه تلك التى فصلتهما عن الجنة. وكانت تضغط عليها بلا هدنة قسوة إلوكيم وما حدث لهما، تاركًا إياها بلا همّة، بلا طاقة لتدرك لماذا ما فعلاه يستحق ضربات أسواط نارية طاردتهما حتى هنا.

أنا عطشى ـ قالت ـ عطش هو هذا الذى يترك الفم جافًا. ساعدنى فى البحث عن ماء. الماء ينهى العطش.

كانت تنطق بالكاد. تشعر بلهيب لا يحتمل فى حنجرتها، وسماكة جافة بين أسنانها.

جال آدم فى المغارة. كان قد سمع خرير ماء ضعيف عند دخوله. فى العمق وجد نبعًا صغيرًا ينزلق من أحد الجدران ويجرى عبر قناة ضيقة حتى يصب فى تجويف صخرة غائر. وبالتناوب أدخل كل منهما رأسه ووجهه وفتح شفتيه ليغسل أسنانه من الرمل. خفّف الماء من جفاف فميهما. ولمّا امتلآ، لم يجروءا على بلعه. كان باردًا على عكس النار، لكنه يحرق أيضًا. بصقاه فى الوقت نفسه. انتابهما خوف من أن يمزق صدريهما.

فوق صخرة عثرا على قطع طويلة من مادة غريبة ينبت فوقها شعر، مثل ما يغطى جلد الخراف. تغطيا به، وشداه على خصريهما. كان شعرًا ناعمًا وبرّاقًا. بعدها دخل إليهما الدفء بتمهل. فاستلقيا على الأحجار. وشاهدها وهى تغمض عينيها غارقة فى النوم. تمدد بجانبها وعانقها وأغمض عينيه مثلها.

صحيتْ حواء. وما ودتْ أن تصحو تمامًا؛ لأنها رأت فى المنام عودتها إلى الجنة ولم يميز إدراكها بعد بوضوح الواقع من الخيال، لكنها فتحت عينيها بمواربة بدافع الفضول لمعرفة إن كانت الأشياء الفظيعة التى تتذكرها قد حدثتْ أم لا. لم تر شيئًا. فتحتْ عينيها على اتساعهما ولم تستطع أيضًا رؤية شىء. جلستْ بغتة. توغلتْ أصابعها فى الهواء الأسود والأعمى. ما عادت لعينيها فائدة. لمستْ وجهها لتتحقق أنها استيقظتْ. صفعها الرعب.

يا آدم! يا آدم! يا آداااااام! ـ صرختْ.

شعرتْ به يتحرك، يستيقظ، يموء. بعدها ساد صمت تبعه صيحة.

أين أنتِ يا حواء؟ أين أنتِ؟

ألا تستطيع أن ترانى؟

لا أرى شيئًا. سواد فقط.

أعتقد أننا ميتان ـ تأوهت هى ـ أى شىء غير الموت يمكن أن يكون هذا؟

تحسس طريقه بالقرب منها حتى لمسها. شعر بأصابعها الباردة. لم يستطع إدراك اختفائها. إلاّ يراها. خرج من صدره نعيق.

لا أحب الموت يا حواء. اخرجينى من هنا.

وبداخلهما، كما فى أزمنة الفردوس الأولى، سمعا الصوت. كانت نبرته تتراوح ما بين السخرية والعذوبة.

إنه الليل ـ قال ـ صنعته كى تستريحا، والآن عليكما أن تعملا لتعيشا. وفى الليل تنامان. ستبقيان بلا إرادة. هكذا تستطيعان الدخول إلى وعيكما. تعرفانه وتنسيانه سريعًا.

أحستْ حواء بأن الصوت كان مفتوحًا لأجلها. فلم ينتبها الخوف.

أنت قاس ـ قالت.

وأنتِ عصيتِ.

لا تقل إنك لم تخطط لذلك. أنت لم تخلقنا أبدًا لنكون خالدين. كنتَ تعرف جيدًا مثلنا أن هذا سيحدث.

حقًا كنت أعرف. لكن هذا كان التحدى. ألا أتدخل. أن أسمح لكما بالحرية.

وبعدها تعاقبنا.

سابق لأوانه هذا الحكم. أقر أننى أعرف منذ الأزل ما سيحدث. لكن كان يجب أن تسير الأمور هكذا.

أعد لى النور.

اذهبى مع آدم فيما بعد إلى مدخل المغارة. سيكون النور هناك فى انتظاركما. يومًا وراء يوم. فمن الآن ستدخلان فى الزمن.

لسنا ميتين على الأقل ـ قالت حواء لمّا انطفأ الصوت.

مع شقشقة الفجر، انتبه آدم للظلال التى ترتفع وتتبخّر مثل الضباب. وكانت حواء نائمة. أتراها تنظر لوعيها؟ أى مكان هذا الذى تصله عند الحلم؟ أتدرك هى ما كان بالنسبة إليه غير مدرَك؟ لم يحب رؤيتها نائمة، ولا أحب النوم. ما أحب أن تُغمَض عيناها ولا أن يكف عقلها عن اتباعه. ومع ذلك، عثر فى ظلمة المغارة على راحة الاستسلام للخمود الغريب، والاستماع لصرخة الجسد ليبقى ساكنًا ويتوقف عن الشعور بالحسرة والنوستالجيا، وبالخوف والريب. فجأة عاوده القلق. أينفذ إلوكيم وعده بإعادة النور إليهما؟

اقترب من مدخل المغارة ورأى ما أثار رعبه حد أنه لم يستطع كبح صرخته. سماء اليوم الفائت المائلة للنقاء كانت متقدة من أقصاها إلى أقصاها، حتى السحابات كانت قد اشتعلتْ. نادى لحواء. فجاءته مسرعةً، تسير بخطى متخبّطة كأنها تتعلم فى التو استخدام ساقيها. نظرتْ للسماء الحمراء. وعبرتْ من جانبه وخرجتْ من المغارة، ومدتْ ذراعيها صوب الفضاء الدافئ. شاهدتْ فى السماء قرص الشمس الأحمر يرحل فى الأفق.

ـ السماء تحترق، لكن الحريق لا يصل لإحراق الأرض ـ قالت هى.

اقترب آدم. وكانت عيناه ممتلئتين بالدموع. عانقته حواء وأراحت رأسها على صدره. كان أطول

منها فأراح رأسه على رأسها وبكى بنهنهة. قال ماذا سيفعلان. كيف سيمكنهما الحياة بعيدًا عن الجنة فى وقت يتألم فيه جسداهما ويتملكهما العطش.

أية حماقة اقترفنا يا حواء؟ أية حماقة اقترفنا؟ فيما تفيدنا المعرفة فى وسط هذا الخراب؟ انظرى إلى رحابة ما يحيط بنا. ماذا سنفعل؟ وإلى أين سنذهب؟

لم تدر بماذا تجيبه. فلا شىء يشبه ما كانت تتخيله. لفتْ ذراعيها حول آدم وضغطتْ. لم تشأ أن تراه متألمًا. ألمه يرن بداخلها ويهز عظامها. ودتْ لو تغلفه بجلدها، لو تتضاعف أصابعها لتلمسه كليًا. هجرها ضيق الصدر الذى يثيره الرجل بتكرار. وشعرتْ أن مكانه بداخلها صار مشغولاً بلهفة لمواساته وعشقه، لهفة شديدة كما الريح وناعمة ومغردة كما ماء النهر. تساءلتْ إذا ما كان يشعر بنفس اللهفة من خلال شعرها، إذا ما كان بوسعه أن يشمها، تساءلت إذا ما كانت معرفته بأنها تفيض له حنانًا سيهدئ من حزنه.

سنجرب الموت يا حواء ـ قال آدم، وهو يرفع رأسه فجأة ـ لعلنا لو متنا نستطيع العودة إلى الجنة.

لكنك قلتَ منذ قليل إنك لا تحب الموت.

اعتقدتْ أن الليل هو الموت. الموت يخيفنا؛ لأننا لا نعرف كينونته.

وماذا سنفعل كى نموت؟ لن يكون يسيرًا ـ قالت حواء، شاردة.

عندى فكرة. نصعد إلى هذا الجبل ـ قال وهو يسترد نفسه ومتحمسًا لقراره.

شرع فى تسلُّق الجبل. وسارتْ هى على خطاه، متباطئةً. لم تكن تعرف ما الموت. قالت الحيّة إن الموت هو عدم الشعور بشىء، لكنها لم تفسّر بأى شكل ماذا يحدث بعد الموت. ربما الأمر يستحق المغامرة. لعلها أفضل طريقة للخروج من الشكوك والتحقق إذا ما كان الموت فظيعًا جدًا. معرفته أفضل من تكبُّد ريب الجهل به.

كان الجبل شامخًا فوق المغارة. أحجاره العملاقة تبرز يمينًا ويسارًا، وفى وسطها كانت الأرض رملية تشقها أشجار صغيرة بها أشواك. وكان وزنهما يزداد كلما صعدا. وأقدامهما كانت تلتهب، كذلك راحات أياديهما التى بها يتعلقان فى الصخور. كان لون السماء قد تغيّر. صار الآن أزرق. بلا سحابات. انطفأ لهيبها وتلألأ قرص الشمس بضياء أبيض ومكثف، من المستحيل النظر إليه. شعرا من جديد بوهج مضطرم يحرق جلدهما. ونزفتْ حواء من قدميها. لا أستطيع الصعود أكثر من ذلك، قالت، واصل أنت وحدك. لكن آدم حملها فوق ظهره وواصل الطريق لاهثًا، متصببًا عرقًا ومنهكًا. لم يسعه أن يدرك التعب، فكل مشقة قام بها من قبل لم تكن تكلفه أى مجهود. كانت حواء تشكى، كانت تبكى. وحسراتها كانت تخترقه عبر أنفه وعينيه وأذنيه، وتمزقه من الداخل. وفى صمت لعن إلوكيم. فى النهاية بلغا القمة. رأيا الأرض الشاسعة،

البراكين المدخنة، جزيرة الفردوس، والأنهار الجارية حتى البحر.

صمتت حواء. ورغم أنه مختلف عن الفردوس، إلا أن المنظر بدا لها جميلاً . جميل ويخصها هى بطريقة غريبة.

لو متنا لن نرى كل هذا ـ قالت.

كنتُ معكِ فى أكل الثمرة ـ قال آدم مقتضبًا وهاربًا ـ فكونى أنتِ معى الآن.

بعد لحظة من التردد والحسرة، ألقى آدم بنفسه من فوق الجبل إلى الفراغ. وألقتْ المرأة بنفسها وراءه. تهاويا بسرعة، وكان الهواء يصفّر فى آذانهما، أغمضتْ حواء عينيها وضمتْ شفتيها.

أمّا آدم فقد استطاع مشاهدة تراب الأرض المائل للحمرة ينتفض، ويتحول إلى نفق هوائى، يدور فى شكل دوامة، فيلفهما ويوقّف سقوطهما وينقلهما عبر الريح حتى يودعهما فى تيار مائى.

تحدّث الصوت داخلهما مرة أخرى.

ليست هذه ساعة موتكما ـ قال لهما ـ ستعرفان الموت فى لحظته. وعندما يأتى ستتمنيان أن يتأخر ولو قليلاً.

ـ ٩ ـ

ضربا بأيديهما الماء مرتجفين حتى خرجا. عرفا خضرة النخل والأرز والصنوبر، وعرفا ضفاف نهر شاهداه من بعيد. كان المكان نفسه الذى ساقهما إليه إلوكيم من قبل. وجدا فوق العشب جلودًا جافةً أخرى يمكن ارتداؤها. هناك كانت الشمس عالية تبرق فى السماء. استلقيا على الضفة فى صمت، مضطربين ومتعظين من العبرة. اقتحم الدفء جسديهما رويدًا رويدًا، فسكّن رجفة خلّفها فيهما دوار التهاوى ورعبه.

كنت خائفة جدًا ـ قالت حواء ـ لا تطلب منى محاولة الموت مرة أخرى.

وافق آدم. وابتلع قبلها رشفات من الماء. كان السائل البلورى طيبًا وأنعش حنجرته وفمه. مع ذلك انتظر وقتًا طويلاً منتبهًا ليتيقن أن مكروهًا لم يصبه وبعدها حث حواء لتذوقها.

اشـربى، اشـربى يا حـواء. لن يصيبك مكروه. إنــه رائع المــذاق ـ قـال وهـو يـأخـذهـا من يـدهـا ويـجـعـلـهـا تـمـيل من فـوق صـخـرة لـتـأخـذ المـاء بـكـفـيـهـا حـتى شفتيها.

شـربتْ حـواء. رشـفتْ الـسـائل بلـذة، ومصت حتى آخـر قـطـرة فى أصـابعـهـا، وكـررتْ ذلك أكـثـر من مـرة. تبسّم آدم. تعجّب من أنها لا ترضى بأنصاف الحلول. إمـا أن تـثق فـيه وإمـا أن تـتـحـداه. وكـانت انـطـبـاعـات وجهه تعكس المتعة بشكل لا لبس فيه.

انـظـرى كيف نجـاكـمـا لمّا قـررتـمـا المـوت! مَنْ يفـهم الوكيم! قلتُ لكما إنه متـنـاقض. يفعل الأشـيـاء وبعـدهـا ينـدم. المؤكد أنـه يأكله الـفـضـول لـيـرى مـاذا سـتـفـعـلان بالحرية التى اخترتماها.

رفعا عيونهما. كانت الحيّة تتكلم وهى ملتفة حول غصن شجرة صغيرة يميل جذعها فوق النهر.

أنتِ مرة أخرى ـ قال آدم:

لقد بقيتُ أيضًا وحيدةً. وأشعر بالملل.

هل لـو كـنـا مـتـنـا لـعـدنـا إلى الـفـردوس؟ ـ سـألـت حـواء ـ ألهذا أنقذنا، ليمنعنا من العودة إلى الفردوس؟

لا عـودة من المـوت. ومن الأفـضـل ألا تـحـاولا مـرة أخرى. لقد عشـتـمـا قليلاً جدًا. الحياة ستقرّبكما من الفردوس.

قولى لنا كيفية ذلك ـ قال آدم:

لا أستطيع مساعدتكما. ما عاد إلوكيم يبوح لى بأسرار. أنا الآن وحيدة.

لكنك تعرفين كثيرًا.

ليست المعرفة حلاً لكل شىء. وستكتشفان ذلك بالتأكيد. سأنصرف. فأنا أرهق من الرد على أسئلة كثيرة.

وبرشاقة انزلقت من أغصان الشجرة واختفت.

تمددتْ المرأة فوق العشب، متأملةً. واضطجع آدم بجوارها. التزما الصمت وقتًا طويلاً، ناظرين من خلال أغصان الشجر للسماء المجوفة والزرقاء.

أسأل نفسى إن كانت الحيّة هى حواء إلوكيم ـ قالت هى ـ لمّا تحدثنا فى الجنة أخبرتنى أنها رأته يخلق كونًا وراء كونٍ وبعد ذلك ينسى. إنهما يعرفان بعضهما منذ زمن طويل.

ربما كانت بداخله كما كنتِ أنتِ بداخلى.

ولماذا فصلنا إلوكيم عن بعض فى رأيك؟

فكّر أننا من الممكن أن نحيا بجسد واحد، لكن ذلك لم يحدث. تركك فى أعماقى، فما استطعتِ الرؤية ولا السمع. لهذا قرر أن يفصلنا، أن يخرجك من داخلى. لهذا نشعر بلذة عندما نمتزج ونصير واحدًا.

لكنك تعتقد أننى مذنبة فى كل ما حدث؛ لأننى أعطيتك ثمرة شجرة الحياة لتأكلها. كان بوسعك أن ترفض أكلها.

حقًا. لكن بمجرد أن أكلتِها، لم أستطع فعل شيء آخر. فكّرتُ حينها أن حياتك ستنتهى. ولم أرغب أن أبقى بمفردى. لو لم آكل من الثمرة وطردك الآخر من الجنة، كنت سأخرج وراءك لأبحث عنك.

امتلأتْ عينا حواء بالماء.

أنا لم أشك فى أنك ستأكلها ـ قالت هى.

فى ذاك اليوم رأيتك كما لو لم أعرفك من قبل أبدًا. كانت بشرتك تلمع بنعومة كبيرة وبريق. وأنتِ نظرت لى كأنك تذكرت فجأة المكان الحقيقى لوجودك بداخلى قبل أن يفصلنا الآخر.

سحرتنى ساقاك. وصدرك، العريض جدًا. نعم شعرتُ بالرغبة فى المكوث بداخلك من جديد. رأيتك فى مناماتى. لك جسد شجرة. تحمينى حتى لاتحرقنى الشمس.

نهضا بدون اتفاق مسبق ودخلا مجددًا إلى الماء لينتعشا.

الفرات ـ قال آدم ـ إنه اسم هذا النهر.

طفوا على سطح الماء مستسلمين للشعور بالماء البلورى. وفهما بلا صعوبة بهجة الأسماك التى أُعجبا على الدوام بألوانها. فتح آدم شفتيه وتجرّع بتمهل السائل المنعش. وفكّر فى طعم الثمرة المحرمة وبحث عن حواء. تبادلا القبلات من جديد ودخل كل منهما فى الآخر مندهشَين من التجربة الغريبة لجسدين

خنيفين يطفوان. بقيا ساكنين لفترة طويلة، يعانق كل منهما الآخر بقوة، محاولَين استعادة ذكرى مفقودة كانا فيها كائنًا واحدًا، والوصول لصور يحملها كلاهما بداخله ليصبا فيها نهر صورهما الخاصة. تجولا بلا جدوى فى دهاليز ذاكرتيهما الواهية، برغبة فى اختراق تموج مشاعر الآخر، دون قدرة على اجتياز مكان وجوده الحتمى بمفرده داخل إطار من جسده الخاص. ورغم محاولاتهما، لم يبلغا رؤية المنظر المتشابك الذى عاشت فيه أكثر أفكارهما حميمية. كان التعرّف على هذا العائق صعب الاجتياز هو ما أحاط بهما فى النهاية، وجعل عضلاتهما وعظامهما تُفتح دون أى اعتبار ليتخذا الحميمية الوحيدة الممنوحة لهما، والتى بلغا لذروتها على الضفة، فى وسط وحل وطحالب حافة النهر.

لمّا شرعا فى طريق العودة للمغارة، كان وهج النهار يفتح طريقًا أمام نور الغروب الناعم والكريم. وكانت النسمات تهب. خلّفا وراءهما غابة الضفاف ليعبرا من طريق وعر إلى الجبل. وفى الطريق لمحا من بعيد قطيعًا من الفيلة وقطيعًا آخر من الوعول، بقرون طويلة. كان يبدو أنها تتجول تائهة مثلهما. فكّرت حواء أنها أكلت مثلهما أيضًا من الثمرة المحرمة. وربما تصدر الحيوانات حكمها بأنهما المسئولان عن طردها من الجنة. تذكّر آدم الضباع. واقترحتْ حواء ألا يقتربا كثيرًا.

أشتاق لقابيل ـ قال آدم متذكرًا كلبه الوفى الذى رافقه فى الجنة.

وأنا أشتاق للقط ـ قالت حواء ـ هيا بنا إلى الجنة لنبحث عنهما.

ـ ١٠ ـ

لمّا لمحا الهاوية مجددًا فى الوسط وبُعد الجنة الغامض، شعر آدم مرة أخرى بسيلان دموعه. لو كان حيوانًا لعوى من الحسرة أمام هذا السراب الذى يشكّل جماله العصى على الشرح اضطرامًا أبديًا فى ذاكرته. اجتهد فى داخله ليكتم تأنيبه للمرأة والحيّة وإلوكيم. قليلاً ما تفيده الحجة والحديث فى الأمر معها؛ وفى أعمق أعماق ذاته، لم يحقق إزاحة ثقل شعوره أنه طُرِد من هذا المكان الذى خُلِق فيه ليحيا كأسعد المخلوقات وأكثرها تميزًا.

رأى حواء تتقدم نحوه وتقف وراء شجيرات مزهرة، وتشتم الزهور. لاحظ أن بشرتها اكتسبت اللون الأسمر والبرونزى، كأنها قد ابتكرتهما بطريقة ما حتى تحافظ على بريق الفردوس. بلغها. وقال إنه لا ينبغى أن يقتربا كثيرًا من الهوة. وإلا ستحاصرهما النار من جديد وتجبرهما على التقهقر.

مشيا حتى مسافة حذرة من الهاوية، أحدهما صوب الشرق والآخر ناحية الغرب. وكانت النباتات المتسلقة التى انفصلت بعد الكارثة عن أرض الجنة الخصبة تنمو فى أرض حمراء، وترفض الموت. عثرا فى طريقهما على أعشاب طويلة، آجام شجيرات، نباتات لها أوراق مزجزجة وشوكية، كانت تعوق خطاهما وتجرح ساقيهما. عرفا قرصات النمل ولسعات الهوام والبعوض. كانت حواء تكلم الحشرات حتى تطيعها وتتركهما فى سكينة. ولمّا انتبه أن كل ذلك لا يفيد، تقدّم آدم ووجه ضربات عشوائية. رأيا أرانب وديكة برية وسناجب وفئرانًا كانت تهرب مفزوعة بدلاً من الاقتراب عندما ناداها. وسمع آدم من بعيد عواء الذئاب وتخيلها بعيدة وخائفة. تساءل إن كانت الذئاب التى عرفها قد عثرت على ذئاب أخرى مثلها جرّبتْ الحياة خارج حدود الجنة. اشتاق إلى الأسود ذات الشعر الذهبى، والزرافة ذات الرقبة الطويلة والعينين العذبتين، والفينيق العظيم، وبالطبع لكلبه القوى، المتحفز والمطيع ـ دومًا ـ لرغباته.

قابيل ـ أسماه ـ قابيل.

عثر عليه عند غروب الشمس. كان يلعب مع ذئب صغير، غير مبالٍ بالرجل الذى يبحث عنه. عند رؤيته، رفع أذنيه وركض ليلعق يديه. جلس آدم على ركبتيه وعانقه. وكان الرجل سعيدًا مثل الكلب بشعور أنه قد عرفه. تأملهما الذئب الصغير برهة. بدا أنه سينضم للعبتهما، لكنه استدار وتاه فى الآجام. ابتسمت حواء

عند رؤية الرجل يلف فى الأرض مع قابيل. هى وقطها لم يلعبا أبدًا هكذا. القط لن يعاملها أبدًا مثلما يعامل قطة، فى المقابل كان قابيل مبتهجًا ويتفاهم مع آدم كأن الأخير كلب آخر مثله.

لم يكن سهلاً على حواء أن تعثر أخيرًا على قطها. استخدمتْ كلمات عذبة طويلة لتقنعه بالهبوط من غصن الشجرة حيث تعلّق، متجهمًا ويموء بحزن. بصقتْ هى فى راحة يدها لتقدّم له ماءً من فمها الجاف. اقترب الحيوان سائرًا وتوقف فوق غصن منخفض، لكنه هبط من الشجرة وتمسّح بساقيها بعد أن حكّتْ ظهره بأظافرها.

بصحبة الكلب والقط، بدأ الرجل والمرأة طريق العودة للمغارة. كان هو فى المقدمة. وكان يرمى قطعة من الخشب للكلب فيلتقطها، ويعود راكضًا بها إليه. يبتسم آدم. ولم تكن هى قد رأته يبتسم هكذا منذ منعتهما النار من العودة للجنة. سار على يقين من قبلته. وأُعجبتْ هى بحاسة القيادة لديه. لم يكن يستخدم أنفه مثل الكلب. كان يمد ذراعه ويطلق نظرته للبعيد ويعقد حاجبيه، فيبدو كأنه يعرف اتجاهه. كان عريض الظهر جدًا. لعل هذا ما كان يسمح له بأخذ موقعه أفضل. بينما كان المنظر أمامها ملتبسًا. كان السهل متسعًا جدًا. نظرتْ للقط السائر بجوارها، بمشيته الخفيفة. ورغم أن الحيوانين لا يتكلمان، إلا أنهما بلسم للهجران والوحدة. كانا يختفيان أحيانًا بين الخضرة، لكنهما يعودان بمجرد

أن يناداياهما.

سارا وقتًا طويلاً. وكان جسد حواء يتثاقل مع مرور الوقت. بدأ يؤلمها الخواء الذى ينخر فى معدتها منذ الصباح. تخيلتْ حيوانًا صغيرًا ينهش فى داخلها ويعضها. أبدًا لم تشعر بشىء مشابه. نظرتْ بجانب عينيها إلى آدم، الذى كان يسير كذلك بتمهل. تغير لون السماء، المكتظة بسحابات صار لون أطرافها وردية وأرجوانية. سمعتْ لنوع من الزمجرة. التفتتْ. كان آدم يضغط على معدته، متكومًا فوق ذاته.

أتشعر بخواء؟ هل تؤلمك؟

إنه الجوع يا حواء.

وماذا سنفعل؟

لا أعرف.

ما زالت المغارة بعيدة. أنا أيضًا أشعر بوجع. ولا أريد السير أكثر من ذلك.

سنبحث عن شجرة. سنجلس.

بحثا عن شجرة واستندا إليها. كان يجب أن يمشيا مسافة لا بأس بها ليعثرا عليها. كانت الأشجار فى السهل نادرة وقصيرة. فى المقابل، كان النخل يتصاعد بلا توقف، نحيف ومنفلت من الريح.

استراحا فى نهاية المطاف. واستسلما للسقوط فوق الأرض. ارتمى الكلب والقط بجوارهما. كان الجوع قد بلغ مداه فجأة كما التعب. فنام آدم مرهقًا.

ورأت حواء رحيل النهار وحلول الغسق. لكن الظلام بدا لها هذه المرة ناعمًا، مجرد غمامة ضبابية كثيفة تغلف كل شىء. بعد برهة ميزتْ عيناها أطياف كل ما هو قريب منها. هدأها ذلك. سمعت صفيرًا، تغريدات عصافير حزينة، أصواتًا خشنة وعصية على الوصف. لاحظتْ أن ظلمة السماء كان يتخللها ثقوب تسمح بعبور النور. تساءلت إذا ما كان عبر نفس الثقوب كانت تسقط البتلات البيضاء التى كانت تتغذى عليها من قبل. هذه الذكرى مضافة إلى طعم ثمرة التين المحرمة، أسال لعابها وزمّجر معدتها. اعتقد آدم أنه قد سمع الصوت يحكم عليهما بأكل الأعشاب والأشواك. تلمّستْ حواء الأرض حولها، وانتزعتْ بعضًا من الأعشاب، ومضغتها. لم يسلِها طعمها المائع والمر قليلاً. ندمتْ على أكل الثمرة من قبل، وتصرفها بكل هذه الثقة فى نفسها، وبكل هذا التحدى. تساءلتْ إذا كان ما اشتاقتْ لمعرفته يستحق كل هذا العناء. يا لقلة فائدة المعرفة والحرية فى تسكين الجوع! فكّرتْ. لو كانت أكثر وداعة، هل كان إلوكيم سيتركهما فى الجنة؟ ولماذا يتصرف بهذا الشكل، وهو يشعر بالإهانة إن كان كل ذلك جزءًا من خطته؟ ربما تلتبس على إلوكيم العوالم التى يخلقها وينسى التصميمات التى يفرضها لعوالم وعوالم أخرى. كانت ساذجة لمّا فكّرتْ أنها بأكل الثمرة سينكشف لها المغزى الخبيث والحسن لكل ذلك.

استيقظ آدم تحت سماء الفجر الحمراء. لكنها لم تفزعه هذه المرة، بل حمّسته. قرر أنه يفضّل النهار

على الليل. على خطوات قليلة من الشجرة التى احتميا بها، لمح شجرة أخرى تتعلق بأغصانها ثمرات خضراء. ترك حواء نائمةً وراح يقطفها. فكّر أنها كمثرى. وامتلأ فمه باللعاب. أعطى ثمرة للكلب، ورآه يقضمها. ورأى عصارة الفاكهة تسيل من فمه. قطف أخرى. وقبل أن تصل حركة يده إلى فمه، ألقاها بعيدًا. هرول الكلب خلفها. غطّى آدم وجهه بيديه. شم رحيق الكمثرى فى أصابعه. لا! صاح مغتمًا من هول مفاجئ يفوق هول الجوع. وتركته رائحة الفاكهة مصعوقًا. قال لنفسه إنه لا يمكن أن يجازف. فلو غضب إلوكيم من جديد، لا يريد أن يتخيل أى عقاب سينزله عليهما هذه المرة. الفواكه خطيرة. لحمها ممتلئ بغضب إلوكيم. إن أكلا منها، سيلقى بهما أبعد من مكانهما هذا. ولن يتمكنا أبدًا من العودة إلى الجنة.

استيقظت حواء. شمّت عبق الكمثرى فى يديه.

من أين تأتى هذه الرائحة يا آدم؟هل أكلت؟

أشار لها إلى شجرة الكمثرى. وقال إنه لم يأكل، فلا هو ولا هى ينبغى أن يأكلا الكمثرى.

نهضتْ مسرعة. ركضت نحو الشجرة. وتبعها هو.

إنه حرّم علينا الأكل من شجرة بعينها يا آدم، وليس من كل الأشجار.

حرّم علينا الأكل من شجرة وطردنا من الجنة كيلا نأكل من شجرة أخرى. أقول لك إننا لا ينبغى أن

نـأكل فـاكـهـة. إنـهـا خـطـيـرة. لا يـمـكـن أن نـخـاطـر من جديد يا حواء.

نـظـرتْ إلـيـه غـيـر مـصـدّقـة. كـان الجـوع يمـزق أمعاءها. وكانت رائحة الكمثرى القريبة جدًا تعوق تفكيرها. حاولتْ أن تقطف ثمرة. منعها آدم. وبدأ الكلب فى العواء.

لا يمكنك أن تجبرنى على ألا آكل.

انظرى إلى حالنا يا حواء، لقد صرنا وحيدين وجائعين ومهجورين. أى مصيبة أخرى من مصائبك تريدين أن أقتسمها معكِ؟

أحست حواء بلهيب فى وجهها وصدرها. وكبحتْ رغبتها فى الانقضاض على آدم، مليئة بالغضب والإخفاق. أخافها اندفاعه. شرعتْ فى الركض شاعرةً بالخزى والارتباك. ركضتْ وركضتْ. ومع هواء الصباح، الخفيف والرطب، استعادتْ هدوءها.

هرول آدم خلفها.

إلى أين تذهبين؟ لماذا تركضين؟ ـ صرخ فيها.

توقفتْ هى.

يغضبنى أن تذكّرنى بأننى أكلت الفاكهة كلما أردتَ أن أطيعك.

عندما أيأس لا يمكننى تفادى ذلك ـ قال هو.

أكلك كان قرارك.

حقًا، لكنك أنتِ من قدمتِ لى الفاكهة. أنتِ من أكلتِ أولا.

لم أكن أعرف ما سيحدث. ولا أنت كذلك كنت تعرف.

كنا نعرف أننا قد نموت.

ولم يكن ذلك ما حدث.

لم يحدث فى ساعتها، لكننا سنموت.

ها أنت ترى أن إلوكيم لم يتركنا للموت. ثم ألا تعتقد أن بلوغ كل منا اكتشاف الآخر جيدًا كان يستحق المعاناة؟ وطعم ثمرة التين؟ ورطوبة الماء؟

والجوع؟ والألم؟

قد لا نشعر بجوع إن تخليت أنت عن خوفك.

اقتربا عائدين إلى الجبل حيث تقبع المغارة. حام فوق رأسيهما ظل. رفع آدم عينيه. وبعد العمى المؤقت الناتج عن النظر صوب الشمس، ميّز أمام زرقة الغروب الخفيفة ريشًا رفيعًا لطائره المفضّل، بجناحين هائلين لونهما برتقالى وذهبى، ورأس صغير متوجّ بقنزعة زرقاء. كان طائر الفينيق.

إنه الوحيد الذى لم يأكل معنا من شجرة المعرفة - صاحتْ حواء - يقينًا يدخل ويخرج من الجنة دون أن تقف النار حائلاً!.

تساءل آدم إذا ما كانت هذه علامة. لعل الفينيق يصطحبهما فى العودة إلى الجنة مجتازين الهاوية.

احتمالية ذلك غمرته بالضحك والرشاقة. شعر بدفعات ليتقافز، ليطير بذراعيه. ذات مرة حمله الطائر فى الهواء، وعبر به البحر قبل أن تُخلق المرأة. تركه فى الماء حيث رأى آدم مخلوقات ضعيفة وخفيفة تسكن فى الأعماق. أسمى السمكة المطرقة، وسمكة القرش، والحوت، والشفنين، والدلافين، والسردين، والحلزونات، ونجوم البحر. تأمل الأعماق الدافئة والفتحات التى من خلالها يهرب بخار الحرائق تحت الأرضية إلى السطح. رافقته أسماك متلألئة فى مسيرة حدس فيها الظلام للمرة الأولى. وكان هذا الحدس لعالم بلا نور ما خطر بذاكرته خلال أول ليلة مظلمة فى حياته. تذكّر الأسماك الصغيرة وذات الظهور الملونة التى تذكّره بأصابع قدمى حواء، وفى اللحظة نفسها بالضبط هبط الطائر، مثيرًا الهواء الساكن، ووضع أمام المرأة ثمرتى تين. حلّق بعد ذلك فى الهواء متجهًا بمنقاره وجناحيه إلى الفردوس.

تناولتْ حواء ثمرتى التين. بمجرد أن رأتهما سال لعابها مقدمًا بمذاق الثمرة وعصارتها ولبها. وبسرعة قط، انتزعهما آدم من يديها.

لا يا حواء. قلت لكِ من قبل إن الفاكهة لا. بخاصة التين.

ضغط الرجل على الثمرتين بيديه. وعيناه تلاحقان قبلة الفينيق. حاصرته خيبة الأمل عند رؤيته يرحل دون أن يحملهما عائدًا إلى الجنة.

أنا جائعة جدًا ـ قالت مرعوبة ـ لا بد أن نأكل يا آدم. نحتاج أن نأكل.

أنا جائع جدًا مثلك، لكن المصيبة تجعلنى أفكّر.

لكن هاتين الثمرتين أحضرهما الطائر يا آدم. وقد يكون الآخر من أرسله.

لا نعرف يا حواء. لقد ظننتُ أن الفينيق سيعيدنا إلى هناك. لكن هاتين الثمرتين...لا نعرف يا حواء، إن كانتا فخًا آخر ـ قال بعناد ـ ما زلنا لا نعرف إن كان الآخر معنا أم ضدنا.

خاب أملها أمام عمى آدم وعناده، فابتلعتْ حواء دموعها التى شعرتْ فى فمها الجاف بمذاقها المالح.

من فضلك يا آدم، لا تلقِ بالثمرتين. احتفظ بهما.

دفنهما آدم عند مدخل المغارة. مستعينًا على الحفر فى الأرض بحجر. وتحت الليل المرصّع بالنجوم لم تتراجع حواء عن سعيها ليتراجع فى رأيه. هناك ثمرتان يا آدم. أعطنى واحدة. ولم تقنعه. ناما بلا كلام، بلا تلامُس، خاضعًا كل منهما لحكمه الصارم فى الآخر. جوعها كان يخيّل لها أن التين سيتحلل فى الأرض؛ ما يمكن أن يكون فى فمها، صار مفقودًا بسبب تطرف الرجل وقسوته. قسوة أن يجبرها أن تنظر كيف يدفن الثمرة وقسوة أكبر أن يقرر لكليهما. لقد تصرّف كأن كلماتها لا وزن لها ولا رنين، كأنه لم يستمع إليها. وكانت هى وكلماتها شيئًا واحدًا. فعدم الاستماع إليها نفى لوجودها، تركها بمفردها. وكان هو

مدركًا أنه لا يستمع إليها. فلو استمع لضعف، ولارتبكتْ إرادته. كانت هى واثقة جدًا من نفسها بينما لا هو يعرف فيما ولا فيمن يثق. فى المقابل كان يعرف أنه يحتاج إليها. يشتاق لدفئها، لجسدها. استيقظتْ على يده تتحسس بوجل ما تحت خصرها منتظرًا أن تسمح بطريق يعبر من خلاله ليعانقها. وبالليل، كان آدم يأخذها بين ساقيه، ويحتضنها من ظهرها. إحساسها بأن الرجل يهزم الظلمة ليلاقيها كان يليّنها. ولم تكن ذكرى غضبها كافية لترفضه. تركتْ ذراع آدم يعبر فوق صدرها ويرتاح فوقه. كانت تشعر بالبرد. كانت المغارة رطبة وواقية بالنهار، لكنها بالليل تفقد روحها. كان يجب أن يبثا دفئهما الخاص باحتكاك أحدهما بالآخر. وارتاحتْ بين أحضانه. فهمس فى أذنها أنه فى اليوم التالى سيصطحبها إلى البحر.

ـ ١١ ـ

سارا حتى ظهرت لهما فى الطريق طيور النورس ورائحة اليود.

أمام عيونهما ظهر الحوض المتسع، الشفاف والأزرق، الذى لا يسبر غوره. ولج الكلب فى الماء بلا رهبة. تقافز ونبح بلا توقف. أما القط فربض على الرمل يتأمله بلا مبالاة. حكى آدم مغامراته الاستطلاعية لحواء. كان يود أن يصطحبها لترى ما رآه. خاضا الماء. تقدمتْ هى بحيطة. والجهد الذى كان ينبغى أن تقوم به لتسير فى وسط الكتلة السائلة أشعرها أنها مقيدة، وخرقاء.

الآن يا حواء ـ قال آدم لمّا وصل الماء لذقنه ـ الآن اغطسى، افتحى ذراعيكِ، ادفعى نفسك نحو العمق.

لا جدوى. فرغم كل محاولاتها، كان يعوقها اختناق فى أنفها وفمها وحنجرتها، وكان الماء يدفعها نحو السطح. حاولتْ بذراعيها وساقيها، يائسة،

الخروج إلى الشاطئ. انتبهتْ إلى أن آدم يتبعها، مرتبكًا وخجولاً. لم أعد كما كنت، قال لها. لم يكن جسده يستجيب له، فبمجرد أن يهبط عدة أذرع يدخله الماء من جميع فتحاته ولا يستطيع التنفس. البحر من أجل النظر إليه، قالت له حواء، عندما عادا إلى أرض راسخة واستعادا طاقتيهما من الماء المالح الذى ابتلعاه. أنهكتهما المحاولة وتركتهما ممزقين، بخاصة آدم. لقد ألح بإصرار على وصف عالم أعماق البحر. والآن يشك إن كان قد رآه ذات مرة. لعله حلم مثلما صار مؤخرًا الجزء الأكبر من حياته.

لكن البحر ليس فقط من أجل النظر إليه ـ قال بيقين.

تمددت حواء على الشاطئ أغمضتْ عينيها. كان دوى الأمواج مناطحًا الضفة بلا هوادة مثل ضجيج تساؤلات لا تتوقف عن الظهور والاختفاء فى عقلها.

بعد وقت قليل عاد آدم. جلس بجانبها.

انظرى لقد أحضرتُ شيئًا لتسكين جوعك ـ قال.

كانت صدفات خشنة وبيضوية. عند فتحها، كانت ممتلئة بمادة مكثفة، بيضاء ورجراجة تترك الفم نظيفًا، كأن الماء كوّن لحمًا رقيقًا ومملحًا. وفوق صخرة، كان آدم يضربها بحجر حتى تظهر ما بداخلها من ثمرة. محار، قال آدم. محار، كررتْ حواء، ضاحكةً.

كيف عرفت أنها تحوى شيئًا بداخلها يمكن أن يؤكَل؟

كما عرفتُ اسمها. إنه الشىء نفسه.

لم يرجعا إلى المغارة حتى أطل اليوم التالى. قضيا الليلة على الشاطئ، كل منهما فى جانب، مذلولين أمام تقلصات أمعائهما: سمعا ضوضاء وشمّا روائح وشعرا بالهجران. مشمئزين، اغتسلا فى البحر عند الفجر. وتناقشا إن كان جسداهما قد تعفّنا، إن كان هذا عقابًا آخر؛ لأنهما أدخلا شيئًا آخر فى فميهما، عندما شاهدا الكلب والقط يتبولان ويتغوطان ويدفنان بالرمل فضلاتهما.

يا آدم، هل تعتقد أن الحيوانات تعرف أنها حيوانات؟

على الأقل لا تعتقد أنها شىء مختلف. إنها لايلتبس عليها الأمر مثلنا.

بالإضافة لكوننا حيوانات، ماذا تعتقد أن نكون؟

آدم وحواء.

هذه ليست إجابة.

يا حواء، يا حواء، لن تتعبى أبدًا من طرح الأسئلة.

إن خطر ببالى أسئلة فلأن لها إجابات. وينبغى أن نعرفها. أكلنا الثمرة وفقدنا الجنة ولا نعرف بالكاد سوى ما كنا نعرفه.

تبادلا الحديث أثناء عودتهما إلى المغارة. قال آدم إنه كان عقابًا بلا شك الاعتقاد بأن الجسد ينتقم بتلك الطريقة عندما يأكلان، لكن الحقيقة أنه على الأقل شعر أن حالته أفضل، أكثر نشاطًا وقوة فى عضلاته.

إنه أمر منطقى. إخراج ما يبعث رائحة كريهة من داخلنا يهبنا الراحة. يا له من إحساس يثير الفضول... مختلف تمامًا عن الشعور بالألم، ألا تعتقدين؟

دارت حواء بابتسامتها ما يثيره الموضوع من خجل بداخلها. أن ترى نفسها مستسلمة للإخراج ومحو ما أخرجته مثل الكلب والقط، فضلاً عن كونه يثير اشمئزازها، كان يشعرها بالتضاؤل. ولم تستوعب أن يستمتع آدم بما يمنحها هى الشعور بالمهانة. لم تفهم عدم اكتراثه بالضيق الذى يستدعيه ذلك.

لم يكن الآخر يمزح عندما قال إننا من تراب وإلى التراب نعود. فكم من الزمن تعتقد أن يدوم جسدانا؟ ـ قال آدم.

لا أعرف. ما أعرفه أن جسدى يتألم أكثر من جسدك.

ماء السماء الرصاصية بدأ فى الهطول. قطرات سميكة ضربتهما فى ظهريهما.

دخلا راكضين إلى المغارة. وكان المطر كثيفًا جدًا. وفى السماء، كانت شجرة ذات أغصان منيرة ومتلألئة تضرب الكون. فترد الأرض على انقضاض غصون

النور بدوى مكفهر. رأيا فى الظلمة عينى القط لامعتين. والكلب يتشمم الأرض. واستراح الأربعة فوق مسطح صخرى استخدموه كسرير. تأمل آدم وحواء متعانقين الانفجارات والبرق والرعد، باضطراب وفزع.

هل ستسقط السماء؟ هل ستنفجر النجوم؟ ـ سألت حواء.

لا أعتقد ـ قال آدم ـ إنها بعيدة جدًا.

كيف تعرف ذلك؟

لست متأكدًا.

استيقظتْ حواء وهى تنزف من بين فخذيها. فزعتْ لمّا نهضتْ، ورأت السائل الأحمر يشق عضوها. مع شقشقة الفجر كانت المغارة يسودها الضباب. حتى السحابات اختبأت فى المغارة من غضب السماء، فكّرتْ. وأسفل بطنها كانت قبضة تُفتح وتُغلق وهى تعذبها. وكان السائل الأحمر ساخنًا ولزجًا. اقترب منها الكلب ليشمها. فأبعدته بضيق.

راحت إلى نبع المغارة واغتسلت، لكن الدم استمر فى سيلانه. أيقظت آدم. فقال إنه سيحضر أوراقًا لينظّفها. قال لها أن تنام من جديد. وكانا خائفين لكن كلاً منهما كان يدارى خوفه عن الآخر. عاد الرجل بعد قليل. أحضر ملء يديه ثمرات وأوراق تين وكان وجهه مشرقًا.

أنبت المطر شجرتى تين من الثمرتين اللتين دفنهما عند مدخل المغارة. والشجرتان الناضجتان كانتا مليئتين بالثمرات.

انظرى يا حواء، انظرى. كنتِ محقة. إنها من أجلنا. نستطيع أكلها.

وبالأوراق وماء النبع صنع آدم ضمادة لجرح حواء.

أيعنى ذلك أننى سأموت يا آدم؟ لا أشعر أننى سأموت. فى بعض الأحيان فقط أتألم جدًا فى داخلى.

الأفضل أن تهدئى. كلى ثمرة تين.

خرج آدم مع الكلب. ومستلقيةً فى ظل المغارة، فتحت حواء ثمرة تين ونظرت لقلبها الوردى والحلو، لبها وبذرها الأحمر فى وسطها. جسدى مختلف عن جسد الرجل، فكّرتْ، فالسائل الذى يخرج منه عندما يصرخ فوقى سائل أبيض. أنا سائلى أحمر ويخرج عندما أكون حزينة. ضمت ساقيها لصدرها. لم تستطع نسيان كلماته وهو يلومها على مصائبها. كانت تؤلم مثل الحجارة التى جرحت أقدامهما لمّا تسلقا الجبل لتلقى بنفسها إلى الموت الذى أنقذها منه إلوكيم. وكانت مقتنعة أن السبب الذى من أجله أنقذهما هو السبب نفسه الذى من أجله حثها على أكل ثمرة شجرة المعرفة: كان يود أن يراهما وهما يعيشان بنفسيهما. وهى سهّلت له ذلك، لكن آدم لم

يشأ أن يستوعبه. فمن الأسهل أن يلقى عليها الذنب من أن يلقيه على الآخر، الذى لا يسمح مطلقًا بأن يكون مرئيًا.

بعد أن غربت الشمس، أدهشهما النور الذى يحيط بالليل. فمن داخل المغارة، كانت أغصان شجرتى التين تتلألأ ويحدهما بجلاء ضوء رمادى. فكرا فى أن الظلمة ممتلئة بالماء وخرجا لينظرا إليه. ذكّرهما الليل النظيف بعد المطر فى جانب وآخر من القبة السماوية بمنظر سطح البحر. فى أعلى نقطة، كان هناك نجم مستدير، مستنير وشاحب يتدلى خفيفًا ومبتسمًا.

تبدو الشمس المنطفئة جميلة ـ قال آدم.

ليست الشمس، إنه القمر. لهذا أنا أنزف.

كيف تعرفين ذلك؟

أعرفه ـ واصلت حواء ـ أعرف أن بداخلى بحرًا يعبّؤه القمر ويخويه.

لم يطرح آدم سؤالاً آخر. وتشرّب بعينيه وبجلده سحر غموض كامن فى وداعة غير معهودة بحواء، وعبق هواء نظيف، ونور بلا دفء يحدد نطاق الصخور والأشجار، وسماء تتنامى نحو مرتفعات لا نهائية. إلى جانب ضآلته ومعرفته بأنه كائن ضعيف وتائه فى الصحراء، جرّب يقين أنه هو وهى جزء أساسى من هذا المنظر الليلى والشجى.

أتعتقدين أننا بمفردنا يا حواء؟ ألا تعتقدين أن هناك آخرين مثلى ومثلك فى هذا الاتساع؟

هناك آخرون. لقد شاهدتهم فى أحلامى.

أيكونون مختبئين بداخلنا؟ أيظهرون عندما ننام؟

لا أعرف يا آدم.

فكّرتْ حواء أن المعرفة ليست النور الذى تخيلته سيفتح سريعًا عقلها، وإنما إلهام بطىء، تتابع من الأحلام والأحاسيس المتراكمة فى مكان سابق على الكلمات؛ كانت هذه هى الحالة الحميمة التى تتنامى بينها وبين جسدها. وفى حالة سيلانها تلك، فى ألم ما تحت بطنها وفى نهديها، فى الوجع الذى يملأ الآن المكان الذى يدخل فيه الرجل، كانت تستشعر بغليان الحياة، بنبع ينبثق منه ليتبعثر فى اتجاهات غير مشتبه فيها. وفى الأيام التى نزفت فيها، لم تود أن تخرج من المغارة. ومنكمشة على نفسها، مرت الأيام وهى نائمة، كأن الأحلام هى الواقع الوحيد الذى يغويها.

ـ ١٢ ـ

ثمرات تين وكمثرى، فواكه مرّة وأعشاب ذات حبوب ذهبية تشبع الحاجة للمضغ، كان آدم يلتقط كل ما يظنه سلاحًا ضد الجوع، لكن الجوع كان يعود مجددًا. وفى كل صباح، عند فتح عينيه، كان يشعر بالجوع مقيمًا فى منتصف جسده، حيًا بداخله كمخلوق متطفل على إرادته، طاغ ووحشى. ماذا يمكن أن أعطيه ليسكن؟ كان الرجل يفكر. الثمرات تهدئه بالكاد، كذلك ما يتذوقانه بتلذذ من لب حلو، وما لا يتوقف عن إدهاشهما هو قدرة الأشجار على إنبات غذاء مثل هذا من جذوعها وأوراقها. فى جولاته حول المغارة، كان آدم يتذوق أيضًا النمل وحشرات أخرى، نباتات سميكة وطرية وجد بداخلها ماءً بشكل غامض. تابع السناجب وتذوق النباتات الجافة التى تآكلها بأسنانها الطويلة، لكن جوعه كان أكبر من كل الأشياء الصغيرة التى يجدها والتى يقتسمها مع حواء. هى، على عكسه هو، لم تكن تتعب من مواصلة

اللجوء إلى شجرة التين لتشبع جوعها. كانت تفكر فى أن ظهور طائر الفينيق حاملاً التين بين أرجله والطريقة التى بها نمت الشجرتان بين ليلة وضحاها علامة لا ريب فيها على أن هذه الثمرات جاءت لتحل محل البتلات البيضاء التى كانت تغذيهما فى الجنة.

قابعًا بين العشب، خائفًا من لقاء آخر مثل لقائه بالضباع، لم يكن آدم يتجرأ على الاقتراب كثيرًا من الحيوانات الكبيرة. ولم يشعرا بوجودها إلا بالكاد بعد أيام كثيرة من الكارثة. ومع أنها ترتجف من آن إلى آخر، كانت الأرض تبدو ساكنة وشجية. ومع ذلك، كان مزيج من أصوات بعضها مألوفًا وبعضها الآخر غامضًا يسافر ببطء فى الهواء حتى يبلغ آذانهما. فى الليل كانا يستمعان لعواء الذئاب المختلفة، وفى النهار كان الهواء يحمل لهما من بعيد زئير الأسود وصَئِىّ الفيلة الشديد. وحيوانات صغيرة: ديوك برية وقردة ومناجذ وغريرات وأرانب، كانت تتحرك بين الأعشاب العالية وأحيانًا كانت تتمكن من الاقتراب منهما ورؤية نظراتهما، قبل أن تهرب مسرعة لتختفى بين النباتات، يتملكها بوضوح رعب يذكرهما بخوفهما من الضباع. وكانت تحوم فوق رأسيهما أسراب من طيور اللقلق والبجع والبط. وكانت حواء تردد أن نعيقها يحرك قلبها، لأنه يبدو لها مليئًا بالنداءات والأسئلة.

كان القط والكلب يثيران فضول آدم. قليلاً ما يأكلان الثمرات ولا يبدو مع ذلك أنهما يعانيان من الجوع الذى يعذبه. ماذا يفعلان فى الفترة الطويلة التى يغيبان فيها عن المغارة؟

اكتشف الإجابة ذات صباح، عند الفجر. أيقظه سرب عصافير مغردة حطتْ على أغصان شجرة التين. جلس على صخرة يتأمل الشحارير تتقافز وتغرد وتنقر التين. وكان القط والكلب مثارين فلا يتوقف أحدهما عن النباح والآخر عن المواء ويجولان حول الشجرتين. كان قابيل يقف على رجليه الخلفيتين كأنه يريد التحليق. بينما كان القط يتلوى متمطعًا من نعاسه وينظر للعصافير بتعبير وجه لا يمكن فك لغزه. وفجأة، بعد أن حك جذعه، فرد القط ظهره وقفز برشاقة ومهارة حتى بلغ غصنًا منخفضًا. تسلّق إلى القمة وكَمَنَ بين الأوراق. نظر إليه آدم مفتونًا. رآه عندما، بحركة سريعة من ظلفه، يمسك أحد العصافير بمخلبه ويثبته من عنقه بأسنانه. نزل القط من الشجرة بفريسته وهو يموء بضراوة، مستخدمًا مخالبه الطويلة لإخافة الكلب، وهرول ليختبئ بين الآجام. وآدم، على أطراف أصابعه، يطل ليرى ما يفعله. رآه يلعب لعبة غير عادلة مع العصفور، يحاصره، يخمشه ويعضه حتى أنهكه. بعدها رأى كيف يغرز أسنانه فى لحمه ويلتهمه بتمهل. ابتعد آدم مشمئزًا. بعد قليل خرج القط من مخبئه وهو يلعق جسده، ونام قيلولته راضيًا تحت الشمس.

هاجم الجوعُ آدمَ فجأة مثلما هاجمه التقزز. ظل فى مكانه ساكنًا. قطف ثمرة تين. قضمها. تساءل إذا ما كان طعم دم العصفور مختلفًا. وفجأة أدرك شعوره بالعظام والروائح التى شمها فى جولاته، والتأوهات

الغريبة وأصوات النمور المختبئة. نظر إلى شجرة التين بحنق واشمئزاز. بصق الثمرة. وفكر فى الطريق الطويل إلى البحر والأصداف. عرف ما ينبغى أن يفعله.

دخل المغارة ليبحث عن هراوة طويلة يسن طرفها فى صخرة فتساعده على كسر الجوز واستخراج الجذور المُرّة. أين تذهب؟ سألت حواء. قال آدم إنه سيذهب لتقصى أصوات قطيع حيوانات يحوم حول السهل. كان يود أن يعرف إن كانت ستتركه يقترب منها. لم ينجح فى شرح سبب تجنبه أن ينطق بالحقيقة. انتبه لنفسك، قالت هى. خرج هو مع الكلب. وبقى القط مع حواء.

كانت الشمس تغلى فى سماء بلا سحابات. قرر أن يسير فى اتجاه معاكس للجنة، صوب السهول الرحبة التى فى عمقها تُرى تشكيلات صخرية ومجموعات من النخل. إن كانت الحيوانات الأخرى أيضًا تسير بحثًا عن غذائها، فلا يمكن أن يكون واثقًا من ألا تعتبره غذاءً. كان خائفًا، لكنه كان مضطرًا. وكان قابيل قلقًا كذلك، كأنه يفهم مهمة الرجل.

لم يكونا قد سارا مسافة طويلة عندما رفع قابيل أذنيه. رأى آدم الأرنب وانحنى. حاول أن يناديه ليقترب الأرنب بمحض إرادته.

يا أرنب، يا أرنب. وقف الأرنب الصغير على رجلين، ورفع أذنين. خرج الكلب خلفه. ولمّا وصل إليه

آدم، كان قابيل يمسك به بين مخالبه بلا حياة ويمزقه قطعًا بأسنانه. ابتعد. ترك الكلب يلتهمه. راقب ما كان يأكله وما كان يتركه، والتلقائية الخالية من التصنع التى بها يلتهم فريسته والغيرة التى بها يحمى غذاءه حتى من آدم نفسه. وعندما حاول هو الاقتراب، زمجر الكلب وكشّر له عن أسنانه. انتظر الرجل. رصد الأفق مضطربًا. ماذا هناك وراء الأفق؟ أخلف كل هذا سماء أخرى مثل التى يريانها بالليل؟ ماذا يكون طعم دم الحيوانات؟ ضرب الكلب بالعصا ليواصلا طريقهما. لم يمر وقت طويل حتى خرج قابيل وراء أرنب آخر. هرول آدم خلف الكلب مختبرًا بذلك سرعة ساقيه. انتزع الأرنب من فم الكلب. كان رأسه يتدلى متهدلاً من جذع الشجرة.

جاء هذه المرة دور الرجل ليختبئ. جلس تحت شجرة. أغمض عينيه. غرز أسنانه فى جلد الأرنب الصغير. شعر بالدم، وباللحم تحت الفروة. فصل الجلد بأسنانه وأظافره، وانتزع وركًا. أكل اللحم الدامى والساخن الذى له رائحة المسك.

سمع ضحكة منخفضة جدًا. ضحكة ساخرة.

انظر إلى ما صرت إليه. الآن يجب أن تقتل حتى تأكل.

فكّر أنه الصوت النابع من داخله، لكنه ميّز بعد قليل النبرة المبحوحة، كأنها تسحب أحجارًا. ورأى الحية.

أنتِ. أنا أعرفك. ماذا تأكلين أنتِ؟

أكلتُ فئرانًا وغزلانًا. الأرنب ليس سيئًا. لكن انظر، أنت من كنت تظن نفسك مميزًا جدًا، ها أنت هنا، تأكل مثل أى حيوان آخر.

أهكذا نعيش فى هذا العالم، يأكل بعضنا البعض الآخر؟

الحياة تتغذى على الموت. إلوكيم يغضب ويفعل هذه الأشياء: يحكم على نوع من الطبيعة أن يعيش على موت نوع آخر. لكنك ترى. لقد حكم علىّ أن آكل الأرض، وحكم عليك أن تأكل النباتات والأشواك، لكنه غيّر فكرته. والآن يترك بعضنا ليأكل البعض الآخر.

هل تعرفينه جيدًا.

منذ زمن طويل ونحن معًا. وطالما هو موجود أنا أيضًا موجودة.

موجودة لتعصى أوامره.

بدونى لا يمكنه تحمل الخلود. أنا من أنفحه الدهشة، وما لا يمكن أن يُقال. لقد منحتك هدية ـ أضافت هامسة بخبث ـ ستجدها عند وصولك للمغارة. ستفيدك فى الطعام وفى التدفئة. لكن عليك أن تسرع. حاولت أن أحذر حواء لكنها رفضت الإنصات لى. إن لم تسرع، ستموت هى.

خدّر الشعور بالتهديد سلسلة ظهر آدم. أحس بعضلاته مشدودة وبيديه متشنجتين. أطلق صوته مناديًا لقابيل، وتوجه للمغارة بسرعة قدر ما سمحت

بها خطواته، حاملاً فى يديه بقايا الأرنب ليقتسمه مع حواء.

عند مروره بالمرج شاهد جماعة من النمور تزمجر بوحشية. شكّلت دائرة لتحمى فريسة ما. وببطء قدر استطاعته، محاولاً أن يشير لها أنه لا نية لديه ليصارعها، انحرف فى طريقه وراء بعض الصخور واستعاد طريقه. تذكر عدد الحيوانات المتوحشة وحجمها الضخم التى سيسميها. كلها جائعة، فكّر، مَنْ سيلتهم مَنْ؟

كان أمامه لا يزال طريق ليمشيه عندما رأى الدخان ورءوس اللهب تلف المغارة وشجرتى التين. شخص ما كان قد غطّى الأحجار التى تشكّل المدخل بأشجار صغيرة وعشب. كانت النار تفرقع متعالية فى ألسنة لهب مرتفعة. توقف دون أن يعرف ماذا يفعل. حتى قبل أن يعرف الخوف، كانت النار تبث فيه الهلع. كانت من بين كل العناصر الأكثر قدرة وسحرًا. ومشاهدتها الآن، والشعور عن قرب بسخونتها ودخانها وتخيُّل حواء هناك بالداخل ملأه بالرعب والعجز. كان الكلب يدور كما المجنون، كان يعوى وينبح. اقترب هو قدر استطاعته، محتملاً السخونة، مغطيًا وجهه بيديه. بدأ ينبح أيضًا، ويزمجر، ويضرب الأرض بساقيه، مناديًا حواء بأعلى صرخاته. خنقه الدخان. لا يمكن أن يسمح إلوكيم للحيّة أن تقتلها. هو قد قال إن زمن الموت لم يحن.

ناداه بأعلى صوته، لاعنًا ومتوسلاً، ضحية لأعلى درجات اليأس.

يا إلوكيم، يا إلوكيييييييم ـ.صرخ، وهو يدور، ناظرًا صوب الجنة.

لم يمر وقت طويل حتى ظهر الفينيق وشاهده. كان يحلّق بسرعة فاردًا جناحيه الأحمرين والمذهبين الضخمين. ضغط على قبضتيه. ماذا يستطيع الطائر أن يفعل ليطفئ النار؟ مذهولاً، نظر إليه وهو يحط فوق المغارة المحترقة بجناحين مفتوحين. فجأة بدأت النار المنتشرة فى اتجاهات كثيرة فى التقهقر والاقتراب من جسد الطائر كأنها مخلوق وديع يستجيب لنداء لا يمكن سماعه. تحول محيط الطائر إلى مادة إسفنجية امتصتْ النار وتضخمتْ لتسعها بداخلها. وكان اللهب يعانقه وتطوق ألسنته ريش الطائر دون أن يتأثر وضعه الهادئ. وفى النهاية، فتح الطائر الهائل جناحيه فوق المغارة مثل شمس متقدة ورفع رأسه. ومدهوشًا ومتحجرًا، تأمل آدم الصورة الملتهبة التى تحترق دون أن تتلاشى لعدة دقائق حتى اختفت ببطء دون أن يتغير وضعها كتمثال رائع، فخلفت وراءها كومة من الرماد. خمدتْ النار، وخرج الرجل من حالة الفزع العاجز وتدافع صوب مدخل المغارة، متفاديًا أغصان شجرة التين المتفحمة. صارتْ رائحة الجدران بخارًا فائرًا، لكن الطريق كان ممهدًا. عثر على حواء، كانت ترتجف وهى مختبئة تحت النبع حيث يجرى بالكاد خيط ماء.

إنها الحية يا آدم. قالت بما إنك الآن قد قتلتْ، فمن المناسب أن تعرف النار.

علينا أن نخرج. سأشرح لكِ كل شىء، لكن اخرجى من هنا.

غربت الشمس. وصارتْ السماء أحزمة وردية وأرجوانية. وكان جلد حواء الساخن يحتك بجلده. شعر آدم بحزن على الفينيق. فكّر أنهما ظناه خالدًا. وكان شبح النار يضطرم فى ذاكرته. وبقلب مرتجف، أشار لامرأته إلى البقايا المتفحمة. وبينما كان يبحث عن أوراق ينظف بها وجهه وجسده من الهباب، جلستْ حواء فوق صخرة. كانت تنظر إلى المغارة، إلى شجرتى التين الميتتين، عندما لاحظتْ يد الرياح تحرّك بنعومة رماد الطائر. كانت ترفعه وتتركه يتهاوى مرة وراء أخرى، كأنها ترتبه قبل أن تحمله. وفوق الصخرة ارتجف كوم الرماد دون أن يتناثر، مغيرًا لونه، ليتحول بتمهل إلى ريش أحمر وذهبى يخفق ثم يتخذ شكلاً يبدو محفوظًا فى ذاكرة الهواء. وفى لحظة ما، انبثق الرأس من الريش. نهض من الأطلال كأنه يستيقظ الآن، وانتفض الطائر، وحينذاك عاد الريش إلى كرته الأولى. وببهجة، ربما مدركًا فى هذه اللحظة أن دورة الطبيعة ستتكرر أبد الآبدين، فتح الفينيق جناحيه الهائلين، وبدفعة رشيقة وصوت فرح، حلّق فى الهواء. حائرين، رآه آدم وحواء يمتزج بألون الغسق ويتوه فى الأفق.

ألا تعتقد أنه سيحدث لنا الشىء نفسه عندما نموت؟

لا أعرف يا حواء، لا أعرف.

اختبأت الشمس. ولاذ الرجل والمرأة من الليل فى مثلث بين الصخور، فى العراء. حاولا الدخول إلى المغارة لكن الجدران كانت تبعث سخونة وتحرق الجلد عند لمسها. ومن مكانهما، كانا يشاهدان بريقًا برتقاليًا ينبع من الداخل. جمرات. عانق آدم حواء. كان لشعرها رائحة دخان. فكّر فى أن الحيّة خائنة. مزدوجة. صديقة وعدوة. وكان الأمر ملتبسًا.

ليس لدينا ما نأكله ـ قالت حواء، ناظرةً لشجرتى التين المتفحمتين.

لدىّ شىء ـ قال آدم.

نهض وراح يبحث عن الأرنب الذى تركه على جذع شجرة قريبة. وضعه أمام حواء. وانتظر رد فعلها. ما رآه هو غذاء، رأته هى حيوانًا مقتولاً ونازفًا. صرختْ المرأة وغطت عينيها.

أهو ميت يا آدم أم أنه سيعود للحياة كما الفينيق؟

لا، إنه ميت.

فتحتْ عينيها. لمست لحم الحيوان الطرى والخامد، وراقبتْ عينيه المظلمتين.

أهذا ما تود أن آكله، الموت؟

هذا الصباح، رأى القط عصفورًا صغيرًا، فقتله وأكله. بعدها اصطاد قابيل أرنبًا وأيضًا أكله. عندما رأيته يعيد الكرة، خطفته منه وأحضرته لنأكله نحن.

علينا أن نقتل حيوانات أخرى ونأكلها، إن أردنا أن نبقى على وجه الحياة. الحيّة قالت لى ذلك. هى أكلت فئرانًا وغزلانًا. لا يمكن أن نأكل فقط ثمرات تين. لحم الأرنب ليس سيئًا. لقد جربته.

وهل تصدق الحيّة يا آدم؟ هل تصدق أن علينا أن نقتل لنعيش؟

كانت حواء تنظر إليه مذعورة غير مصدقة.

ما أعرفه فقط أننى بمجرد أن رأيت القط يأكل العصفور الصغير، أدركتُ أن هذا ما علينا فعله. هناك أرانب كثيرة يا حواء.

أطرقت حواء، تقاطعتْ يداها خلف رقبتها فى إيماءة يأس.

مَنْ هو الآخر؟ من هى الحيّة؟ مَنْ هما هذان المخلوقان يا آدم؟ أحدهما يخدعنا، والثانى يعاقبنا. يسعيان لصداقتنا، لكنهما يتضادان فيما بينهما. إذا كان أكل ثمرة ساقنا إلى هنا، ماذا تعتقد أن يحدث إن قتلنا لنأكل؟ أنا لا أريد أن أقتل يا آدم. وكيف نعرف ما القتل وما عدمه؟ القتل من أجل الأكل - كررتْ هى، بتعبير وجه مشمئز ومصعوق - من تخطر بباله هذه الفكرة؟

قلت لك هناك أرانب كثيرة. خلقها إلوكيم من أجل هذا.

أؤكد لك أن الأرنب الذى تقتله لا يعنيه فى شىء وجود أرانب أخرى كثيرة. وماذا لو قرر حيوان آخر أننا أرنباه؟

يومًا بعد يوم علينا أن نعيش ونتعلم. ليس بمقدورى أن أجيبك على كل أسئلتك.

لا ينبغى أن تقتل. هذا ما يقوله لى كل جسدى. فإذا كان الموت عقابًا شبيهًا، لماذا يجب أن نفرضه على آخرين؟ يبدو أنه من الصعب على إلوكيم أن يضع نفسه فى مكاننا، يفكّر أنه يعرف أكثر ما يناسبنا، لكننى - نعم - أستطيع أن أضع نفسى فى مكان الأرنب. يا له من مخلوق مسكين. انظر إليه، وقد صار قطعة لحم ممزقة.

ليس الهدف القتل من أجل القتل، بل القتل من أجل البقاء.

لم تكن الحياة هكذا فى الجنة.

أنتِ كنتِ تودين معرفة الخير والشر. ربما يكون هذا هو الشر. وعلينا أن نجربه. إن لم نفعل، سنموت.

فى كل الأحوال سنموت.

قال إلوكيم إن وقت الموت لم يحن.

هكذا يبدو لك أن هذا هو الشر الذى ينبغى أن نجربه.

نعم

لكننا حران يا آدم، ونستطيع الاختيار. وإذا كنت تعتقد أننا أخطأنا ذات مرة، فلماذا نخطئ من جديد؟ لقد تُركنا وحيدين. والقرار لنا فى اختيار كيف نريد أن نعيش.

نظر إليها آدم محدّقًا. أُعجِب باندفاعها. لكنها هى من وضعتهما فى هذا المأزق. لم تكن تخاف من معرفة الخير والشر والآن تخاف مما يجب فعله لتعيش.

أنتِ أكلتِ الثمرة.

كنت أريد المعرفة يا آدم. والآن أعرف أكثر مما كنت أعرفه عندما كنا فى الجنة. لهذا أطلب منك ألا تقتل.

لو لم نأكل من الثمرة، ربما ما تحتم علينا القتل أبدًا، لكننا الآن وحيدان. ولا أستطيع فعل ما تطلبينه. فأنا أيضًا أعرف ما يجب أن أفعله. ربما لا يتحتم عليكِ أنتِ القتل. ربما يأتى من هنا اختلافنا.

ربما يا آدم. ظن ذلك إن أردت.

أنا أكبر وأقوى منك. وأشعر أننى مسئول عما يبقينا حيين.

وأنا أشعر أننى مسئولة عن الاعتناء بك. ويبدو أنه يجب أن أبدأ ذلك بالاعتناء بك من نفسك. فلسنا حيوانًا يا آدم.

كيف تعرفين ذلك؟ الفرق الوحيد بيننا وبينها هى الكلمات التى نستخدمها.

والمعرفة.

ما أعرفه أننا يجب أن نأكل. والحيوانات تعرف ذلك أيضًا. أنتِ فقط من يضايقك هذا.

يضايقنى الاضطرار للقتل.

هذا قدرنا الذى لم نقدره لأنفسنا.

سيتحتم عليك الخشونة لتفعل ذلك. ستتعلم الوحشية.

ربما يكون شرًا يا حواء، لكن الشر أيضًا جزء من المعرفة.

فكّرتْ حواء بنوستالجيا فى نور الجنة وسكينتها. فى الخلود. تذكّرتْ راحة نفسها، وخواطر عقلها البسيطة والبعيدة عن المفاجآت والبكاء والحنق والغضب؛ تذكرت هذا الطفو الخفيف لورقة فوق سطح الماء.

لو لم نأكل الثمرة ـ قالت هى محدقة فى عينيه ـ ما كنتُ أبدًا تذوقتُ طعم التين أو الصدفة. ما كنتُ رأيت الفينيق يُبعَث من الرماد. ما كنت عرفتُ الليل. ما كنت عرفتُ الشعور بالوحدة فى غيابك، ولا كنت شعرت كيف امتلأ جسدى البارد فى وسط الحريق بالدفء بمجرد أن ناديتنى. لو لم نأكل الثمرة، لظللتُ أراك عاريًا دون أن أرتبك. وما عرفتُ أبدًا كم تعجبنى عندما تتسرسب كسمكة داخلى لتخلق بحرًا.

ولا أنا كنت عرفتُ أنه لا يروق لى رؤيتك جائعة. يبدو لى وحشية أن أراكِ تذبلين دون أن أفعل شيئًا لتجنب ذلك. أنا لم أقرر أن تكون الحياة هكذا يا حواء. فأنا أتعلم مما أراه حولى.

لم يقل الرجل شيئًا آخر. وهى التزمتْ الصمت كذلك. لماذا يفكران بهذه الطريقة المختلفة؟ ـ تساءلت ـ من منهما سينتصر؟ وفى العراء، بجانب الصخور التى تحيط بالمغارة، تكورتْ بجانبه، وبعدها فتحتْ ساقيها ونامتْ فوق آدم، وكان القمر الصغير يحيط برأسها، فأنسته بذلك الجوع والحاجة إلى القتل.

عند الفجر عادا إلى المغارة. وكانت السخونة الكثيفة قد فتحت طريقًا لعبق دفء ممتع. وفى رمل الثغرة كانت بعض الأحجار المحترقة تضطرم بخمول. رمى آدم الأرنبَ دون مبالاة. فأسالتْ لعابه رائحة اللحم على النار. وعلى النار تَذَهَّب اللحم وصار سهلاً غرز الأسنان فيه. فكّر أن عليه أن يتعلم السيطرة على قوة النار. فكّر أنها مثل كل شىء، تحوى الخير والشر.

راقبته حواء دون أن تقترب.

فى اليوم التالى كانت هى من خرج ليستكشف. أرادتْ أن تذهب بمفردها. لا ينبغى أن تذهبى بعيدًا، قال لها، فربما لا تستطيعين العودة. ما الذى يجعله يظن أنها لن تستطيع الذهاب والعودة مثلما ذهب هو وعاد، ابتسمتْ هى. وخرجتْ.

لاحظتْ أن نور الشمس يأتى ناعمًا وخفيفًا عبر سماء مكسية بالغيوم. سارتْ صوب النهر وهى تفكّر فى البحث عن طريقة للعبور إلى خضرة الضفة الأخرى. لاحقها الكلب عبر مرج العشب الطويل الأصفر. كان يتقدمها متشممًا الأرض، ومتسببًا فى

فرار الأرانب التى كانت تخرج مهرولة فى كل الاتجاهات. كانت هناك أرانب كثيرة حقًا. تخيلتْ قلوبها الصغيرة المرعوبة. وصقر كان يحلّق منخفضًا جدًا رفع واحدًا منها وحمله وهو يحلق فى الهواء. سيقتله. سيأكله، فكّرتْ هى. تذكّرتْ رائحة لحم الحيوان. وكان مقززًا رؤية كائنات حية تأكل بعضها البعض. الدم. أسنان الكلب. ألم الحيوانات الضحايا. كل ذلك محزن. أى خير من الممكن أن يأتى إذا كانت الحياة تتغذى على الموت؟ من قدّر هذا؟ ماذا سيفعلان إن حاول حيوان آخر أن يقتلهما؟ رفضتْ أن تقبل أن هذه هى الوسيلة الوحيدة للتزود بالرزق. فالأرض تمنح التين والفواكه. وإن كانت تغذى العصافير والفيلة، فلابد أنها تقدّم غذاءً ما حلوًا ومفيدًا. آه، كم أشتاق لبتلات الجنة البيضاء!.

وصلت إلى النهر. تخيلت عينًا ضخمة بعيدة جدًا من هناك تبكى الماء البلورى. كان النهر متعجلاً جدًا رغم أن لا هدف له سوى الجرى والجرى. أنصتت لهمسه. ربما تموت العصافير داخل النهر وهى تواصل تغريدها. كانت الأحجار الصامتة والتى لا تعبر عن نفسها، ناعمةً ووديعةً داخل الماء. وكان النهر ينبع من بعيد جدًا. ويتلاشى فى الأفق. ومن أعلى الجبل؛ حيث ألقيا بنفسيهما فى الفراغ، كانت تتذكر أنها رأت فرعين طويلين من الماء يتلويان فوق المنظر حتى يتضاءلا فى البعيد. ذات مرة عليهما أن يتتبعاه ويريا أين مصبهما.

سارت تحت ظل الأشجار، مستنشقةً بلذة عبق النباتات. سناجب وعصافير وحشرات، تعج فى كل مكان. وكان الكلب يتشمم. توقف ليتبول. قفزت حواء من الضفة إلى جزيرة صغيرة متوازنةً فوق أحجار تبرز من العمق. سبح الكلب. هى أيضًا نزلت إلى الماء لتبلغ الضفة المقابلة. التقطت بجريدة نخل ثمارًا بدت لها ممتلئة وصالحة للأكل. كان المنظر أكثر خضرةً وخصوبة فى تلك الضفة، بأشجار كثيفة الأغصان والأوراق ونخلات صغيرة ينبت منها براعم البلح التى قطفتها وهى سعيدة باكتشافها. عثرتْ أيضًا على آجام طويلة مذهبة ومتوجة بقنازع مكونةً من حبات صغيرة وجافة جرّبت مذاقها. كانت تتسكع بطاقة غريبة، مثل غزال، ناظرة هنا وهناك، ليست بنظرة متأملة، بل بهدف واضح يكمن فى العثور فى الطبيعة التى تحيط بها على ما يمكن تحويله وجعله مفيدًا. انتزعتْ أوراقًا طويلة وذابلة. ربطت بعضها ببعضها الآخر لتثبت حمولتها. قطفت قشورًا وبذورًا وزهورًا، وجرّبت كل شىء، وهى على يقين أنها محاطة بمفاتيح ستبلغها فك الألغاز بالصبر والانتباه. فى الليلة السابقة، ناظرةً إلى ريش الفينيق، شيدتْ فى خيالها لباسًا من الريش لها ولآدم، لكنها بالكاد عثرتْ على ريشة هنا وريشة هناك متناثرة على الأرض.

مع عودتها بحمولتها الصغيرة، داهمتها لحظة دوار. كانت على وشك أن تفقد كل شىء عند عبور النهر ناحية الجزيرة الصغيرة. لاحظتْ أن الخشب

يطفو مع التيار، فربطتْ قطعتين من فروع عريضة وجافة بحبل الأوراق الذى تحمله، وشيدت مركبًا صغيرًا وضعت عليه غنيمتها. وأثناء عملها كان الكلب يتمدد تحت الظل. وفى النهاية وصلت حواء إلى الجانب الآخر مرتجفة، لكنها سعيدة. وعرفتْ أن مجمل ما فعلته فى ذاك اليوم كان خيرًا.

ـ ١٣ ـ

كان آدم قد قتل أرانب أخرى وسلخها. فحزنتْ هى لمّا عادتْ ورأت فرواتها منشورة ـ أشباحًا متيبّسة ومنثورة ـ ومعروضة فى الشمس فوق الصخور. وجدتْ الرجلَ نائمًا داخل المغارة، بوجه يغوص مجتهدًا فى النعاس، وبقايا مأدبته فوق الأرض بجانب شجرة التين؛ حيث تضطرم قطع من الحطب الجاف. رفع القط الراقد بجانبه رأسه لينظر إليها دونما اهتمام. أما الكلب فاستحوذ على عدة عظام، وراح يتناولها فى ركن من الثغرة.

فتحتْ هى حزمة ثمراتها وأكلتْ بلحًا وبرتقالاً.

الأرض فى جانب النهر الآخر تشبه الجنة. هناك أشجار كثيرة وثمرات. انظر إلى كل ما عثرتُ عليه ـ قالت عندما استيقظ ـ لن تضطر لقتل أرانب أخرى.

أرأيتِ كم اصطدتُ؟ أشعلتُ نارًا بقطعة حطب فى جانب من المرج ووقفتُ فى الجانب الآخر. فجاءت مهرولةً. لو كنتِ معى، لاصطدنا أكثر من ذلك.

وابتسم راضيًا وفخورًا.

ولماذا اصطدت عددًا كبيرًا؟

ستنفعنا فروتها فى لباسنا، وسنحصل على ما يكفينا من الغذاء.

كنت أقول لك إن هناك على الجانب الآخر من النهر ثمرات بغزارة.

لن نستطيع الابتعاد عن هنا يا حواء. ينبغى أن ننتظر بالقرب من الجنة لعل الآخر يندم ويغير رأيه. تعالى. انظرى.

نهض واصطحبها إلى منعطف فى الصخور القريبة، حيث كان قد وضع أرنبين دون سلخ فوق حجر نظيف وأملس.

وضعتُ هذا قربانًا من أجل الآخر. أريد أن يعرف أننا نشكره على تدخله بإرسال الفينيق لينقذك من النار. انظرى إنه ما زال يسهر من أجلنا. ولعله يغفر لنا.

أن يمنع موتنا شىء، وأن يكون مستعدًا لعودتنا للجنة شىء آخر.

انظرى لخطأكِ عندما فكرتِ أن أكل الثمرة ليس إثمًا كبيرًا. من الممكن أن تخطئى من جديد.

وإن لم يأت لأخذ الأرنبين؟

سنأخذهما نحن. وسنقدّم له قربانًا كل يوم لتليين قلبه.

فى تلك الليلة شعرتْ حواء أن النعاس سيتأخر فى المجىء. فتحتْ عينيها فى الظلام ورأت عينىّ القط تلمعان دون أن ترمشا، ورأت كذلك لمعان الجمرات الأحمر والتى كان آدم يغذيها بالعشب والأغصان الجافة حتى لا تخمد. لم تكن تفهم الوحشية، لكن طعم الكلمة فى فمها كان مرًا. أغمضتْ عينيها. تجولتْ فى حنقها. حاولتْ أن تميّز بين الدم الذى سال وقت حميميتها عن دم الأرانب. وداخل عينيها، كان البحر يعاود ظهوره وكذلك الشاطئ الطويل والصامت؛ حيث غردتْ الأمواج بنشيد لا نهائى. وفوق الصخور البعيدة رأت صورة. اعتقدتْ أنها آدم فسارتْ نحوها. كان وجه أخرى تشبهها فاندهشتْ. أذهلها أكثر أنها تعرفها وتعرف اسمها. وبينما كانت حواء ترتدى بالكاد فروة وحيدة وخشنة وممزقة استخدمتها كلباس، كانت الأخرى على عكسها ملفوفة بملبس من الريش يستر كل جسدها بنعومة. سمعتْ حواء الأخرى تحدثها، لكن الريح كانت تحمل كلماتها. كانت تود أن تسمعها فاقتربتْ فى محاولة للتغلب على مقاومة الهواء الذى صار كثيفًا ومائلاً للبياض. بدأ فمها يمتلئ بالملح، لكنها لم تتراجع. كانت تريد معرفة مَن تلك التى تشبهها وتظهر لها فجأة فى عزلتها. تمكّنتْ فى

النهاية من الإفلات من الهواء الذى قيدها وسقطتْ على بطنها فوق المرأة. أثناء العناق ذاب الوجه الذى كان ينظر إليها. ولمّا استعادتْ توازنها كانت وحيدة على الشاطئ، جالسةً فى مكان الأخرى، بلباس الريش تشاهد البحر.

يا آدم، أين نذهب عندما ننام؟ من هؤلاء الذين يشبهوننا ويعيشون داخل أحلامنا؟ رأيت ليلة أمس على الشاطئ امرأة أخرى تشبهنى. ربما تقبع هناك. علينا أن نروح لنبحث عنها.

قال آدم إنه كان يحلم بآخرين يشبهونه. لا أقصد أنهم موجودون. فالأحلام هى ما نرغب أن نراه.

خرج ليرى إن كان إلوكيم قد أخذ الأرنبين. لم يكن هناك شىء فوق الحجر، لكنه رأى فوق صخرة كانت تتوج الجبل الوحيد نسرين كبيرين مترصدين. ركض ليلّم الفرو الذى نشره ليجف، محدسًا أنه ليس إلوكيم من انتبه لقربانه.

سنأخذها له إلى الجنة ـ قال وهو عائد.

أعطته حواء برتقالاً وبلحًا ليتذوقه. أكل ببطء، متلذذًا بعصارة الفاكهة الحلوة ولحمها. بينما أخذتْ هى البذور لتزرعها فى الأرض فيما بعد، حتى تصير أشجارًا كما حدث للتين. أخذا أغصانًا جافة ليشعلا النار. وحمل آدم فوق كتفه حزمة من الأرانب المُضحى بها وخرجا سيرًا عائدين إلى الجنة.

كـان الـطـقس حـارًا. ومن بـعـيـد كـانت الـسـمـاء رمـادية، مـليـئـة بـالـدخـان، كـأن نـصف الأرض الآخـر، النصف الذى لا يبلغان رؤيته، يضطرم. تذكرا رؤى من أيامهما الأولى: اضطرابات وتلألؤات كانا قد تأملاها بلا توتر. علامات الكارثة والزمجرات التى هزت الأرض تحت أقدامهما، الآن تخيفهما. اقتربتْ حواء من خصر آدم. ماذا هناك فى البعيد؟ سألتْ. كانت مرتابة فى أنهما قد يعرفان ذات مرة ما يحويه البعيد. احتضنها آدم. كانت هى أصغر حجمًا، وجسدها أكثر رقة. كان يتساءل عن السبب. وكان يتساءل إن كانت محقة فى تفكيرها فى أنها معه لتعتنى به من نفسه. وبتكرار كان يخاف أن يتركها وحيدة. يخاف من طريقتها فى الحلم، من غيابها عنه دون أن تتحرك من جانبه. كان يندهش من عينيها اللتين تريان علامات بالنسبة إليه غير مرئية وبشرتها التى تحذر، بحاسة شم الكلب والقط، ما كان على وشك الحدوث. فى ليالٍ كثيرة، متأملها وهى نائمة، يشعر برغبة فى إيقاظها وتأليمها. لم يستطع أن يتجنب الشعور بالغيرة من طريقتها المميزة التى بها، خلافًا له، ترتبط بالأرض، كشجرة مجتثة من جذورها. كان يصعقه أنها قليلاً ما تحزن على أكلها الثمرة. وتصر على أنها لم تكن هى، بل الآخر مَنْ قدّر لها فضولها خطير الهدف، وترفض قبول نصيبها من الذنب. وما زال محتملاً أن تجرى عليهما المخاطر إذا ما واصلتْ إصرارها على الابتعاد عن الجنة بحجة

أنهما لن يعودا إليها أبدًا. بينما لم يستسلم هو لقبول هذا. ففضلاً عن خوفه من الكوارث والغيب، كان يخاف من نفسه، مما يجب أن يستعد به ليبقى حيًا فى هذه الأرض الكريهة. كان يخاف من الجوع ومن الوحشية التى بها قتل أرنبًا وراء آخر، ساحقًا رأسه بحجر. كان ينبغى أن يصير قاسيًا كى يقتل. وهى لم تكن مخطئة.

كانا يعرفان بالذاكرة الطريق إلى الجنة ولهذا كان بوسعهما استعادتها فى قلبيهما أثناء تقدم خطواتهما بالمرج الذى ينمو فيه القمح عاليًا ومذهبًا، دون أن يحدسا بعد الخبز الكامن فى حبوبه.

كان الدخان البعيد الذى ذرته الريح يظلّم نور النهار، مضببًا محيط المنظر الطبيعى. وكما حدث لهما ـ دومًا ـ عند الاقتراب من الجنة، اخترقهما الحزن من أقدامهما وتسلّق إلى بقية الجسد مثل اللبلاب. فى ذاكرتيهما، كانت النوستالجيا تؤجج لون ووزن وأريج الذكريات.

فى هذه المرة كان آدم الأول فى ملاحظة التغيرات. وكانت حواء مطرقةً تركّز تفكيرها فيما تثيره رائحة الأرانب الميتة من تقزز. دفعها رنين صوته لترفع رأسها.

إنها تُمحى يا حواء! إنها تُمحى! ـ صاح حانقًا.

نظرتْ حواء. فكّرتْ فى أنها ستنهار إن أضافتْ إلى تعب جسدها صعقة عينيها. ترنحتْ قليلاً. ركض

آدم وعانقها. استندتْ إليه، ورأت حينذاك خط نور عريض وبداخله، كأن قوة جبارة تمتصها، التأمتْ الهاوية والتحمتْ الأرض مجددًا، لكن كل ما فى الجنة شرع فى التحليق متحللاً فى شكل بخار برّاق، كأن غلاّية مختبئة تخرج من عمق الأرض لتبخّر الأشجار والأوركيدا والنباتات المتسلقة. وبتحولها لأطياف طويلة، امتدتْ الأشكال النباتية صوب السماء فى هيئة خضرة رأسية تتلألأ فيها أصباغ هيّنة من الأحمر والأزرق والبنفسجى والأصفر، وكأن الجنة بغتةً تحولتْ إلى مزيج من ألوان قوس قزح. وكانت جذور الأشجار والشجيرات وكل ما هو قريب من الأرض ما زال يحتفظ بمحيطه، لكن أغصان شجرة الحياة المهيبة وأشد ما فى شجرة الخير والشر قتامةً، وكذلك أوراق وألوان قمم الأشجار، انفصلتْ عن السطح لتنشئ أثر مطر مضاد يصعد مهتزًا ومرتعشًا ومحتويًا بداخله كل درجات اللون الأخضر؛ وكان المنظر مثل رؤية صورة مستنقع يجذبه أحد من السماء بعذوبة وبطء.

أغمضتْ حواء عينيها وفتحتهما لتتحقق من أن الرؤية لا تنبع من تعبها. لم تكن تعرف كلمة وداع، لكنها شعرتْ بها. فكّرتْ فى أن الموت الذى وُعِدا به سيكون كذلك. سيختفى المنظر الطبيعى والألوان، وينتهى مكان الذكريات الأصلى، ويبقى المرء أعزل وخامدًا و وحيدًا، يشاهد بعجز اختفاء ما كان وما كان من الممكن أن يكون.

أحسستْ بالغضب حيال هذه الفعلة شديدة الوحشية.

ومع أن الوقت قد حان ـ ربما ـ لتختفى الجنة، وليقبلا دفعة واحدة الواقع الذى خُلِقا من أجله وسيضطران للحياة فيه، شعرتْ، فى وسط حنقها، بسريان وضوح فكر إلوكيم بداخل فكرها: إنهما ليسا البداية، بل النهاية الكاملة التى قد أراد هو أن يراها قبل أن يتحمّس ليمنحهما الحرية، قالتْ. وذات يوم ستعود ذريتها إلى الفردوس. رأت حواء عقدة بطنها تنفك، وتنبثق منها حلقة وراء حلقة: مخلوقات بدائية تفتح لنفسها طريقًا، متغلبة على عقبة وراء عقبة، حاملةً معها منظرًا طبيعيًا محفورًا فى ذاكرتها وساعيةً للعودة إلى بهاء الجنة الطفيف. أدركتْ الضيق والأمل المثارين فيها لمّا لمحتْ الصور الملتبسة والمحتشدة، التى لا تزال عاجزة عن فك لغزها. تفكّرتْ فى البحث عن نسلها بالتلمس، عبر الطريق الدائرى الذى قد يسلكونه حتى يلمحوا هيئة الأشجار التى تحتها تنفّست هى نفسها الأول. وتمنّتْ لو تتمكن من الاحتفاظ لنفسها ولآدم بالجزء الصغير الكامل الذى قد يشير إليها للأبد بأصبع الاتهام. وأدركتْ أن إعلان براءتها لن يفيدها إلا قليلاً. فذنبها أيضًا كان جزءًا من أقدار إلوكيم والحيّة.

عادتْ إلى نفسها. وكان آدم يهزها.

كنتِ محقة ـ وكان الرجل يرتجف ـ إنه يدمّر الجنة. لن نستطيع أبدًا العودة، ولا الأكل من شجرة الحياة.

احتضن الرجل خصره وانتحب فاجعًا. لقد منّى نفسه بيقين الرجوع إلى الجنة. والآن بعد أن قتل صار الموت مرعبًا له. وفى كل ليلة كانت لهفته تزداد. يتحسس نفسه عند الاستيقاظ، يملأ رئتيه ليتحقق من بقاء الهواء، من رائحة الأرض، من وجود حواء بجانبه. كان ممتنًا للنور وماء عينيه وصلابة جلده وعضلاته وعظامه، وحتى الوظائف الحيوانية التى كانت فى البداية تثير اشمئزازه. والآن يجبره إلوكيم على تأمل نهاية بدايته. ومثل قمم الأشجار، ستذوب هكذا حياته وحياة حواء، وكل بحر ونهر ونار وفينيق رأته عيناه.

لم يحتاجا لاتفاق مسبق حتى يعرفا أنهما سينتظران هناك حتى تختفى الجنة كليةً. ومصعوقَين أمام المشهد، وقفا فى الوسط بين بعض الصخور مهزوزَين من الذهول. كانت الأحزمة الملونة تهتز مع الريح وتنحل إلى خطوط رأسية ذات صبغات متغيرة؛ ومن أعلى قمم الأشجار، كانت أسراب عصافير تحلّق فى السماء وتتناثر فى كل الاتجاهات، وخرج ذكر الفينيق وأنثاه طائرَين صوب الشمس. فاحترقتْ فى البعد أجنحتهما الهائلة ذات اللون الأحمر والمذهبة بألوان قزحية، وملأت الفضاء بكرات نارية. أصبح لدى حواء شعور واضح بأن الزمن توقف. ولم تعرف

أن كل ما يحدث يحدث بسرعة فائقة، بينما هما وكل ما يحيط بهما يكتم أنفاسه. حد أن الحشرات التى تجتذبها الأرانب الميتة كانت تبدو طافيةً فى الهواء بلا حركة. وحتى حركات آدم، حين كان يبعد الحشرات بحزمة قمح، بدتْ لها شديدة البطء بإفراط.

يا حواء، أتعتقدين أن بإمكاننا الدخول للمرة الأخيرة؟ لقد انسدت الهوة.

لم يتبق من شجرة الحياة سوى الجذوع بالكاد. ولابد أن إلوكيم يعرف أننا لن نستطيع الأكل منها والبقاء للأبد ـ أجابته حواء.

لا أريد أن أموت.

وماذا فعلت الأرانب عندما قتلتها؟

قاومتْ، لكنها فى النهاية سقطتْ صريعة.

ربما هذا هو كل شىء: المقاومة ثم السقوط صريعًا.

وبعد ذلك، أهناك جنة أخرى؟

وماذا سنفعل هناك بعد أن اكتسبنا معرفة الخير والشر؟

لا أعرف يا حواء. لا أعرف. أنحاول الآن العودة للدخول؟ أتمنى لو أدخل.

اقتربا بحيطة. كانا يخافان أن يلحق بهما سوط النار. ولم يتبق فى الجنة سوى بالكاد قطع صلبة. لم يوقفهما شىء. وعند سيرهما عبرا بظلال الأشجار

والنباتات. كانت بعض الروائح تعبّق الجو وكذلك أصداء تغريد بعض الطيور. واللون ـ كما الزبد ـ كان يلتصق بجلديهما لعدة ثوان. كانت الجنة أيضًا تودعهما لاعقةً جسديهما كما الكلب.

فى المكان الذى تذكّر آدم أنه استيقظ فوجد حواء بجانبه، عثر على ثلاثة نباتات صغيرة كانت جذورها ما زالت متوحدة مع الأرض. انتزعها بحيطة ليحملها معه ويزرعها، معتقدًا أنه تحت ظلها يُمكنه أن يتخيل البقاء فى الجنة من جديد.

عادا إلى المركز، إلى مكان شجرتى الحياة والمعرفة. وكانت حزم الألوان ترتفع فوق رأسيهما، مشكّلةً خيوطًا كثيفة لأنوار خضراء، فاتحة وغامقة. جميل، قالت حواء. جمال، هكذا يُسمى هذا. وابتهجتْ لما وجدتْ الكلمة المضبوطة. كانت قد بحثتْ عنها أكثر من مرة فى عالمها المهجور الذى أسرها، شيئًا فشيئًا، بغسقه العنيف وسهوله وأنهاره. يبدو الجمال عندما تستطيع العيون التعرّف عليه. لعله يكمن أيضًا فى الموت. وربما لا يكون الموت شرًا كبيرًا. نفضتْ رأسها ونظرتْ إلى يديها. كان شعرها وأظافرها قد نمتْ. كم ستدوم حياتاهما بعيدًا عن زمن الجنة الأبدى؟

ـ ١٤ ـ

سارا على مهل وبلا همّة فى طريق العودة إلى المغارة. كان قد مر زمن طويل منذ أُغلِقتْ أمامهما الجنة. لكنهما يعرفان مكانها. يستطيعان رؤيتها حتى ولو من بعيد. وكانت هذه المعرفة سلوى غريبة. كانت تحدد لهما نقطة البدء، مكان الأصل. ومع اختفاء الجنة، وقعا تحت رحمة الصور المحفوظة فى الذاكرة، والذكريات التى ستختلط مع الوقت بالأحلام.

كان آدم يسير فى المقدمة، وحواء خلفه غارقةً فى أفكارها. تذكّرتْ مرة أخرى كلمات الحيّة: " إنه يملّ، يخلق النباتات والأكوان وبعدها ينساها ".

ما أن استحضرتْ ذكراها حتى سمعتْ صوتها رنانًا يناديها. كانت تثير عاصفة ترابية صغيرة. زحفتْ الحية نحوها سريعًا لتصل إلى جانبها.

لم يصطحبك معه، أهجرك أنتِ أيضًا؟ ـ سألت حواء.

يريد أن يبقى وحيدًا. أعتقد أنه حزين. لكنه هو نفسه المسئول. فهو من يخلق سراباته الخاصة. انظرى إليكما، خلقكما على صورته وشبهه دون أن يتجرأ على منحكما حرية أكبر من حرية محدودة؛ مع وجوب اعترافى أنى لم أره يتجرأ سوى مع قلة من مخلوقاته على مقاسمة الكثير من سلطاته، باستثنائى أنا. والأرض الآن ملككما. بوسعكما إعادة خلقها وتعريف الخير والشر كما يبدو لكما.

كيف كما يبدو لنا؟

إنه ليس هنا. لن يعيش يومًا وراء يوم ما تعيشانه، لن يستطيع أن يهمس فى آذانكما طوال الوقت.

شردتْ حواء.

سيجب أن نتعلم معرفة الخير والشر. لقد أكلنا ثمرة الشجرة.

حقًا.

وأكل الحيوانات وقتلها، أهو خير أم شر؟

وهل شعور آدم بالجوع، خير أم شر؟ - قالت الحية ساخرةً:

بإمكانه أكل أشياء أخرى.

هو يرى أنه ليس خيرًا أن يأكل فقط الثمرات والجوز. فهذا لا يسد جوعه.

الحيوانات الأخرى تقتل أيضًا. القط والكلب.

ولا تعرف شيئًا. فالخير والشر طرفان، وبينهما كثير من المستويات.

أنتِ تحيرينني.

هو أمر محيّر. إنه البحث الذى تودين السعى فيه.

القتل من أجل الأكل ليس خيرًا بالنسبة إلىَّ.

إذًا لا تفعليه. اقنعى آدم.

حاولتُ لكنه مُصرّ.

أصرى أنتِ أيضًا.

سيكون هباءً. فالجوع مزعج ومضبوط فى مواعيده، مثل الشمس والقمر.

تنازلى إذًا، ولا تصدرى أحكامًا.

لكن لذلك عواقبه.

أنتِ قررتِ الأكل من الشجرة. وكان لذلك عواقبه. الآن انطلقى. لقد تأخرتِ جدًا خلفه، وآدم يبحث عنك. يصيبه القلق عندما لا يراكِ.

عائدة إلى المغارة، غاصتْ حواء فى نوم ثقيل أسرها لأيام كثيرة. فى عالمها الخالى تقريبًا من الماضى والذكريات، كانت أحلامها تتكرر دون أن تكون هى نفسها. إلوكيم، الحية، الفينيق، الأرانب، البرتقالات، البلح، البحر، الموت؛ الأكل ودخول كل منهما فى الآخر عاريًا. ولم يرغب آدم أن يلتصق جلده

بنومها التعيس. لذلك كان يتركها نائمة ويشغل نفسه. خرج ليبحث فى ضفة النهر على نباتات رقيقة ذات جذوع نحيفة ومرنة. وبأشواك شجرة صغيرة ثقب فراء الأرانب الجافة ومرر الليف النباتى من جانب إلى آخر صانعًا بذلك لباسًا يقيه الآلام الكثيفة التى يشعر بها كلما اصطدم قضيبه بشىء. ولكى يرقق الفروة، تركها فى الطمى عدة أيام. لاحظ أن الطمى كلما كان أكثر اتساخًا، كلما صارتْ طراوة الفروة أكبر. وبالفروات الأكثر نعومة، اختاط لحواء رداءً تستر به كتفيها وصدرها وفرجها. اصطاد أرانب أخرى، واصطاد طيور حجل خجولة. وغاص فى النهر ليمسك بالأسماك، لكنها كانت تنزلق من يديه. وحصد بيضًا من عشش الطيور. وسار مع مجرى النهر، واجتاز الجزيرة الصغيرة واكتشف الغابة التى عثرتْ فيها حواء على برتقال وبلح. قليلاً ما أكلته المرأة. وكانت تحلم بصوت مرتفع وتتقيأ معدتها معظم ما يحثها على أكله.

جذبت النار ورائحة اللحم حيوانات أخرى. وليلاً، كان الكلب ينبح فيسمع هو بالخارج زمجرات وهمهمات مهددة. لم ترغب حواء فى رؤية ذلك، لكنها كانت كثيرة تلك الحيوانات التى يلتهم بعضها بعضًا أمام الجوع. بحث آدم وسنّ الأحجار وحفر بها الأرض ووضع عند مدخل المغارة بعض صفوف من الأوتاد تعوق خطوات الزوار غير المرغوب فيهم. وأدهشه أن يجد بداخله جوابًا للألغاز التى واجهته بها الحاجة.

شد الأحجار المسنونة فوق هراوات خشبية طويلة ليضاعف قوتها، وحاول صيد ظبيين. طاردهما برفقة قابيل، لكنهما فاقاه فى السرعة.

اكتمل القمر مرة أخرى، غير أن حواء لم تنزف.

جسدى يتغير يا آدم. انظر إلى نهدىّ. عندما أضغطُ عليهما يخرج من الحلمتين سائل أبيض. وانظر إليهما وقد صارا كبيرين وثقيلين. وكثيرًا ما أشعر بالنعاس وما آكله يتعفن بداخلى.

كان آدم يتهرب من الحديث معها فى ذلك. كان يتظاهر بأنه لا يرى شيئًا مما تشير إليه. فما يراه كان يرعبه ولا يجد طريقة لتفسيره.

انطفأتِ لأنك تنامين كثيرًا. اخرجى معى غدًا. ستتحسنين إن غصتِ فى النهر. وسنحاول أن نمسك بسمكة ما، أو نعود إلى البحر بحثًا عن أصداف.

أراها الرداء الذى خاطه لها. نهضتْ هى. كان الرداء متسخًا. تنبعث منه رائحة. ومتشابك الفروة. تذكرتْ لحم ماء الأصداف وشعرتْ بالجوع. كان هو قد أشعل النار. لقد تغير أيضًا، فكّرتْ. توقف عن الحزن، وعن امتلاك الآمال. فمع غياب خيار الجنة لجأ لمهارة يديه ولبديهيته الخاصة.

لقد اشتغلتَ كثيرًا ـ ابتسمتْ.

رحتِ للجانب الآخر من النهر. من الممكن أن نروح معًا أن أردتِ.

أريد النزول فى ماء النهر، لكننى أتمنّى أكثر أن أروح إلى البحر.

غذّى النار. وضع فيها أحجارًا قد سنّها فيما يشبه كيسًا مصنوعًا من أحد الجلود. بعض الأحجار كانت صالحة جدًا للتقطيع، قال لها. ولم يعرف آدم كيف يخبرها كم من الوقت قد نامتْ. قال لها إنها كثيرة تلك الليالى التى قضاها منتظرًا أن تعود من حيث غاصتْ. أثناء ذلك، برد الهواء وتساقطتْ على الأرض أوراق الشجر الصفراء والجافة. ربما يختلط سريعًا كل ما يريانه ويختفى كما الجنة. الحق أن المنظر كان يتحلل. الخضرة كانت تشحب ونور الشمس يتساقط فوقهما ناعمًا ووديعًا.

ماذا تفعل الحيوانات؟ هل رأيتها؟

من بعيد. نعم تقترب لكن بالليل فقط. حينها أسمعها تتنفّس خارج المغارة. أسمعها لكننى لا أفهمها.

وهل تخاف؟

أخاف أن تفكّر فى أكلى، كما أفكّر أنا فى أكلها. لو تمكنتُ من الإمساك بحيوان كبير، لن أضطر للخروج كل يوم لصيد أرانب ولا حجل. وهو ما تزداد صعوبته يومًا وراء يوم؛ لأننى أعتقد أنها تخمّن خدعى التى أستخدمها للإيقاع بها.

لا أعرف كيف تفعل ذلك؟ أيحلو لك الشعور بأنك الأقوى والأذكى؟

أنا بالتحديد أتكهن بما يجب عمله وهذا يدهشنى. أواجه مشكلةً وما أن أتفكّر فيها للحظات حتى أعرف فجأة كيف أحلها. أرى احتمالات، أجربها فتكون إحداها صالحة دومًا.

إذًا، هناك شىء غير القتل يحركك.

القتل! ليست هذه هى القضية. القضية هى البقاء. أنا أصغر من كثير من الحيوانات، لكننى أتميز عنها فى أننى أستطيع توقُّع حركاتها. هى فى المقابل تفتقد الخيال. ففضلاً عن الكلام، أعتقد أن هذا ما يميزنا عنها. وكذلك الحزن يا حواء. أتحسر كلما تذكرتُ الحيوانات وهى تصحبنى فى الجنة وانتبه أننى الآن أفكر فقط فى أكلها. تسيئين فهمى عندما تظنين أن ذلك ليس صعبًا علىّ.

الطقس بارد خارج المغارة يا آدم. أتعتقد أن الشمس تنطفئ؟

أعتقد أنه باختفاء الجنة صار العالم حزينًا. ليت الشمس لا تنطفئ يا حواء. علينا أن نصنع قرابين أخرى من أجل إلوكيم حتى يرضى عنا.

وصلا إلى النهر. كانت خضرة نباتات الضفاف ما زالت كثيفة. وكان الماء الجارى باردًا جدًا وأكثر قتامة. جلستْ حواء على العشب وشرعتْ فى قضمه. عضتْ وأكلتْ، وسريعًا قد تخضع للحاجة، للجوع. قد تكف عن الحكم على آدم، كما نصحتها الحيّة. أيهما أسوأ: الجوع أم الموت؟ طافتْ عظامها فى جسدها

والآن يمكن رؤيتها تحت الجلد. كان يمكن رؤية أقواس أضلاعها، عُقد ردفيها، ركبتيها؛ بطنها فقط كانت منتفخة. قد لا يتبقى لها سوى الاستسلام لأن تحيا مثل بقية الحيوانات التى تأكل بعضها بعضًا. ومع ذلك، هناك حيوانات كثيرة ترعى بكل بساطة. لكنها لاتستطيع أكل العشب طوال اليوم كما تفعل تلك الحيوانات. فمعدتها لا تسامحها. والقىء الأخضر كان مرًا ولا يمكن تفاديه بعد أن أكلت الجذوع والزهور التى جلبها لها آدم؛ لأنه رأى الغزلان والخرفان والأيل تأكلها. نهضتْ واقتربتْ من الماء. دخلت إلى التيار على مهل. وبذراعين متقاطعتين فوق الصدر، كاتمةً أنفاسها، غاصت فى الماء الجليدى. كان شعورًا مؤلمًا بشكل حاد، لكنه أيضًا ممتعًا. انكمش جسدها على نفسه، لكنه كان متيقظًا، وكان دمها يجرى بسرعة أكبر. تدافعتْ بقدميها ويديها، وسبحتْ قليلاً. شعرها الطويل كان يطفو حولها. اقتربت سمكة فضية وبدأت تجول بين الخيوط السوداء. دخلت وخرجت كأن هذا أغصان نبات تحت البحر. اتبع السمكة سمكات أخرى. فوجدت حواء نفسها فجأة محاطة بحشد من السمكات البرّاقة التى تقترب منها بلا خوف، وتداعب جلدها. ودون أن تفكّر رفعتْ يدها ومررتها فوق ظهر واحدة من السمكات الأكبر حجمًا. سمحتْ لها المخلوقة بذلك وبعد أن سبحتْ حولها فى شكل دائرى، عادت لتداعبها من جديد. جرّبتْ هى أن تمسك بواحدة منها بين يدها فبقتْ السمكة هادئة داخل

أصابعها. كانت السمكات تقدم نفسها لحواء. ترغب أن تكون ممسوكًا بها. رفعتْ عينيها، ورأت آدم على الضفة يشير إليها، ويشجعها على أخذ السمكات وإلقائها خارج الماء فى اتجاهه.

أمسكتْ بأكبر سمكة من وسطها. وبإيماءة سريعة، ألقتها فى اتجاه آدم، متفاديةً التفكير والتعاطف مع رعشة حياة هذه المخلوقة. ظلت السمكات تحسس على جلدها، كأنها تريد أن تفعل معها نفس ما فعلته مع السمكة الكبيرة. أخذتْ سمكة أخرى. رمتها لآدم. فعلت ذلك أربع وخمس مرات. بينما كانت ترتجف من البرد، ويهتز قلبها من تلك الشعيرة الصامتة والناعمة التى تؤديها السمكات بتسليم نفسها كأنها تعرف أن حواء تحتاجها.

كان آدم قد تعلم سر النار. فجمع أغصانًا جافة وحك حجرين لفترة طويلة حتى انطلقتْ الشرارة الصغيرة واشتعلتْ شعلة.

نظرتْ حواء إلى السمكات الخمس الميتة. رأت عيونها المفتوحة. رفعتْ واحدة منها بيدها وحدثتها طالبة منها المغفرة. بعدها، وبشكل تلقائى، وبنظرة شاردة، بدأت فى نزع حراشفها بأظافرها، التى قد نمت وصارت طويلة وحادة، ثم مررت السمكة إلى آدم.

وأكلت اللحم الأبيض بعينين مغمضتين. كان لحمًا طريًا وحلوًا، مثل بتلات الفردوس.

ـ ١٥ ـ

على مهل استردتْ حواء قوتها. استوحتْ من بعض الفطور ذات الخيوط المتشابكة التى تنمو فى الخضرة الكثيفة على ضفاف النهر فكرة عقد النباتات الليفية وصنع شبكة لصيد السمك. ولمّا كانت تأكله، حاولتْ ألا تتذكّر حركاته الرشيقة وهو يسبح مع التيار. أقنعتْ نفسها حتى لا تشعر بالذنب أن كائنات الماء لا تعانى من نفس نوع الموت الذى تعانيه كائنات الأرض. وتخيلتْ أنها تنتقل من حالة إلى أخرى بنفس الوداعة التى بها تقضى حياتها طافية وسابحة فى صمت. كانت تحلم بعدها بالسمك الذى أكلته يتحرك فى معدتها، فى الملاذ المستدير الذى ينمو يومًا وراء يوم فى بطنها.

كانت تحب العودة إلى البحر. تملّكتْ روحَها ذكرى الأصداف وفكرة العثور على المرأة التى رأتها فى أحلامها وصوت تلاطم الأمواج الهادئ والرغبة

فى التسكع بمفردها بعيدًا عن الرجل الذى يصر على مرافقتها. انتظرتْ حتى رحل آدم ذات صباح وبدأت فى سيرها.

راق لها شعور ألا يصحبها سوى أفكارها. نزلت من المغارة ونظرتْ إلى الجبل الشامخ فوقها، صخريًا ووعرًا حتى القمة، بشجيرات ما زالت أشواكها تذكّرها بجرح جلدها. وبينما تهبط لمحتْ فى السهل قطيع حيوانات صغيرة بأعناق طويلة وقرون كبيرة فى رءوسها. نعاج، فكّرتْ. لقد تبعثرتْ مخلوقات الجنة. كان آدم يقول إنه رأى فيلة وزرافات وحميرًا وحشية تختبئ وراء الأفق وتسير كأن أحدًا فى النهاية أخبرها أين تذهب. حيوانات كانت تختفى وأخرى تعود من هروب الأيام الأولى. حيوانات يمكن مشاهدتها وأخرى تتوارى متربصةً مثل آدم، تصطاد الحيوانات الأصغر أو الأقل وحشية. فكّرتْ فى الضباع لكنها أقصتها من ذهنها كيلا يصيبها الرعب. وفى عمق السهل، كانت الجبال تتجلّى فى النهار المعتدل. والخضرة المتكدسة فوق ضفاف النهر كانت تبرق بجمال. قد يتحتم عليها للوصول إلى البحر أن تجتاز منخفضًا تغطيه الغابات فى الجانب الآخر من الجبل، وأن تتسلق تلالاً وتسير بعدها فى سهل رحب ومهجور تنمو فيه حزم من النخل. وقد تعود إلى المغارة لحسن طالعها عند الغروب.

سارتْ إلى الخلاء عبر منحدر وهى تدور حول الجبل حتى دخلتْ الغابة. كانت الأرض تنحدر بشدة.

حاولتْ ألا يتوه عن نظرها التل بالجانب الآخر والذى من خلاله قد ترى البحر، لكنها سريعًا ما رأتْ نفسها محاطة بجذوع سامقة وأوراق كثيفة. على عكس الجنة المضاءة دومًا، كان نور الشمس فى عمق الغابة يتحول لظلال. اشتمتْ رائحة رطوبة خفيفة، ووطأت بخطواتها الأوراق فطقطقتْ وأفزعت حشرات وكائنات صغيرة ثم تجنبتها. على مهل ودون عجلة، توقفتْ لتنظر إلى أمهات أربع وأربعين والسحالى وسلحفاة برية لها دروع برتقالية. تساءلتْ كم أبدية احتاجها إلوكيم ليخلق كل هذا، هل ينتبه للتفاصيل أم أن المخلوقات التى يتخيلها، بمجرد خلقها، تتكفل لنفسها بابتكار أفضل طريقة لتعيش فى أماكن مختلفة جدًا. أدهشها أنها لم تطرح أى سؤال من هذا وهى فى الجنة. ولاحظتْ الوداعة التى بها كانت تقبل كل ما كان موجودًا، هى أيضًا كانت جزءًا من الجمال الذى لا يسأل عن ذاته.

اعتقدتْ أنها سارت ما يكفى للوصول إلى التل لكنها كانت تخرج من شبه ظلمة إلى نور، ومن نور إلى شبه ظلمة. حاولتْ أن تحدد المكان الذى هبطتْ منه وهى تحسب أنها قد قطعتْ منتصف الطريق. نظرتْ حولها. اعتقدتْ أنها تعرف بعض الأشجار بأوراقها المتسلقة التى تنمو فوق الجذوع لكنها انتبهتْ أنه شعور مزيف، وأن الأشجار تعكس بعضها بعضًا مثل واحد من أحلامها التى تتكرر وتدور بلا توقف حول الشىء نفسه. عادتْ لاقتفاء خطواتها وهى تفكر

أنها قد تعثر على آثارها، لكنها اختفتْ بعد مسافة قصيرة. لم تفقد حماستها. وقالت لنفسها إن عليها فقط أن تقرر السير فى اتجاه واحد دون أن تنحرف وتخرج منه. لم يكن المنخفض واسعًا جدًا وفى لحظة ما كان عليه أن يتشعب. سارت دون أن تتوقف. وفكرتْ لعدة مرات أنها تقترب من نهاية الغابة، لكن لم يحدث. لقد تُهتُ، فكرتْ، وهى غاضبة من نفسها. وتحول الغضب إلى خوف وحسرة عندما لاحظتْ انطفاء نور النهار بعد أن كررت محاولات العودة من حيث جاءت أو السير فى اتجاه مختلف. جاعت وعطشتْ. ورأت شجرة باسقة وسميكة ممتلئة بثمرات صغيرة. قطفت بعضًا منها. وضعتها فى راحة يدها وتذكّرتها. كانت ثمرات تين. أصغر وأكثر اصفرارًا من ثمرات شجرتى المغارة أو الجنة، لكنها تين فى النهاية. جلستْ تحت الشجرة. سأستريح، فكرتْ. سأستريح وآكل. ماذا قد يفعل آدم إن لم يجدها؟ ماذا قد يحدث إن لم تستطع الخروج من هناك؟ كان الضجيج يزداد كلما شحب النور. زيزان وجداجد تصدر أغانٍ مسائية طويلة وجهورة. سمعتْ نقيق الضفادع الخشن، وشعرتْ باستيقاظ الفراشات الليلية. ربما تضطر لقضاء الليلة وانتظار النهار التالى. إن كانت لم تستطع الخروج حتى ذلك الحين، فلا تتخيل كيف ستستطيع الخروج فى وسط الظلمات. استمعتْ فجأة لضجيج كبير وأحستْ بحركة أغصان الشجرة. ظهرت مجموعة من القردة. كانت تتقافز فوق الأغصان

واستراحتْ فوقها بتأن لتنعم بالثمرات. لاحظتْ حواء أنها لم تكن القردة الصغيرة ذات الوجوه الشاحبة والأجساد النحيفة والرشيقة التى تعودت رؤيتها فى جولاتها مع آدم والتى تذكرها بالعنكبوت، ربما بسبب الخطوط التى ترسمها فى تقافزها. هذه القردة كبيرة، بظهور وأذرع عريضة. لمحتْ حواء عيونها اللامعة تبادلها النظر أيضًا.

يا للغرابة، فكرتْ. لا تتذكر أنها رأت من قبل حيوانات شبيهة فى الجنة.

بعد وقفة مليئة بالضجيج، اتفقتْ فيما بينها واقتربت منها قردًا وراء قرد. أكثرها جرأة نزل من الشجرة وأحاط بها فى صمت. ومن حين لآخر كانت إحداها تصدر صوتًا حادًا ومتكررًا. أذهل حواء أن وجوهها معبّرة، شبه بشرية، وعيونها العذبة التى تنظر بها إليها كانت ممتلئة بالفضول. لم تشعر أبدًا أن حيوانًا آخر قد نظر إليها من قبل بتلك الطريقة. أحد القردة، أكبرها حجمًا وأعلاها سلطة، اقترب منها. ابتسمتْ له دون أن تعرف ماذا تفعل. لم تحس بالخوف بل بالانبهار أمام رؤية ما يقدمه الحيوان. انتصب القرد وفرد إحدى ذراعيه حتى لمس برقة، وبيد مجعدة وطويلة، شعرها المتساقط على وجهها. فبدأت القردة الأخرى فى إطلاق وإصدار صراخات صغيرة.

القرد الذى لمسها أمسك بيدها. كان يرغب أن تتسلق الشجرة معه. قالت لا، رفضتْ بهزة رأس. أيكون قد ظنها قردة؟ ومذهولة، حاولتْ حواء أن

تتفاهم معه بالإشارات، مشيرةً إلى أن هذه ليست طريقتها للتحرك فى العالم. إنها فقط تستطيع السير ولا تجد مخرجًا لها من هناك. نظر إليها القرد باهتمام. دارتْ هى حوله لتُريه بالإيماءة ألا ذيل لها حتى يدرك عدم تمكنها من تسلق الأشجار. بعد قليل، عادت عدة قردة للتسلق عبر الجذع حتى استقرتْ على الأغصان. فى النهاية انصرفتْ جميعها. ولمّا صارتْ وحيدة، أغلق الظلام الغابة. كان بعد ذلك عندما تكورت واستندت إلى الشجرة واستسلمتْ لليل، وشعرتْ أن هناك من يهبها ثمرات تين فرأت القرد الذى لمسها من قبل يقترب منها جدًا. يتقافز ويحك رأسه، يطلق صرخات صغيرة كأنه يريد قول شىء. رأته يبتعد عن الشجرة ويمشى بين الأشجار، يستند إلى ذراعيه وساقيه. كان ينظر إليها ويومئ لها. استغرقتْ المرأة وقتًا حتى استوعبتْ، لكنها نهضتْ وبدأت ملاحقته.

كان الليل مغلقًا لمّا لمحتْ المغارة تحت ضوء القمر. وجدتْ آدم بجانب النار. مبحوح الصوت من كثرة الصراخ، من كثرة ما ناداها. بحث عنها فى النهر وقرب الأثر الذى خلفته الجنة، وعاد لتوّه إلى المغارة منتظرًا رجوعها.

حاولتُ الذهاب إلى البحر. كنت أريد أن أراه ـ قالت.

حكتْ له كيف فقدتْ قبلتها، ومحاولاتها للعودة ولقاء القردة.

أحد القردة أشار لى إلى الطريق. اصطحبنى إلى حافة الغابة. تركنى هناك، كأنه فهمنى. أتعتقد أنه فهمنى يا آدم؟

لا أعرف يا امرأة ـ قال آدم وهو يعانقها.

نام واضعًا أذنه فوق بطن حواء، ملتحفًا بساقيها، مفكّرًا أنه لا يريد فردوسًا آخر سوى البقاء هكذا فوقها، مستمعًا لهذا البحر الذى ينمو بداخلها والذى يخيل إليه أنه يسمع منه غناء الدلافين.

ـ ١٦ ـ

خافتٌ حواء أن يفيض بحرها الداخلى. فمع مرور الوقت، كانت كائناته المضطربة توجه ضرباتها صوب جدران بطنها أو تموج تحت ضلوعها. وكان قمرها المستدير بداخلها لا يتوقف عن النمو. حركتها بالثقل الذى تحمله كان يزيدها تعبًا. كانت تتساءل إن كانت ستأتى لحظة تصير فيها عاجزة عن الحركة، محكومًا عليها بالحياة كنبات مضحك يتذكر أنه كان امرأة. لم تكن تعرف ما هذا الذى يختلج بداخلها، ولا إن كانت هذه حالة عابرة أم نهائية. أما خوفها الأكبر فكمن فى أن تتقيأ ذات يوم من أيام تقيؤاتها الكثيرة حيوانًا بحريًا، نوعًا جديدًا يلتهمها هى وآدم ليسكن بمفرده فى تلك الأرض التى قد يتطلب البقاء فيها وحشية أشد من التى كانا قادرين عليها.

لقد شاهدتُ حيوانات أخرى منتفخةً مثلك يا حواء. لستِ الوحيدة. النعاج كذلك. ورأيت ذئبة أيضًا. شىء ما سيخرج من داخلك.

أرانب ـ ضحكت حواء ـ فالأرانب وحدها تصنع أرانب أخرى. هل سنتكاثر يا آدم؟ أتكون صورتنا هى ما ينسج بداخلى؟ أفكّر أحيانًا أننى ممتلئة بالماء وأن كل السمكات التى أكلتها ستخرج وتلتهمنا.

لم أكن أبدًا صغيرًا، ولا أنتِ كذلك. هكذا لن يتسع داخلك لصورتنا.

هناك أرانب صغيرة. تنمو بعد ذلك. ما يسكن بداخلى يتحرك.

قد تكون بتلات بيضاء أو سمكات ليأكلها من يظهر عندما ننام.

وأنت يا آدم، ألا تشعر بشىء؟

أشعر بضيق يا حواء. أتساءل إن كنا ذات يوم سنفعل شيئًا آخر غير التفكير فى تجنب الجوع والموت من البرد. ليس بوسعى أن أفكر فى شىء آخر.

فى عالم الشتاء المثلّج، رأى آدم نفسه مضطرًا للتجول بين الغنائم التى تركتها حيوانات أخرى، منافسًا النسور على بقايا الجيف. كان يدهشه أحيانًا العثور على قطع لحم كاملة بين العظام. وكان يتخيل أن الضوارى الكبيرة، النمور والدببة والأسود، ما زالت تحتفظ فى صمت ذاكرتها بالرباط الذى ربطه بها فى الجنة، وأن تلك هى طريقتها فى أن تظهر له أن كل شىء لم يُنس. كان يسعد بهذه الاكتشافات، لكنه كان يبكى أيضًا. وفى الوقت الذى يسيل لعابه وهو يفكر فى الأكل، كان يشعر بالحسرة. يتذكّر زمنًا كان فيه

مستحيلاً تخيُّل عالم تسكنه مخلوقات تهدد بعضها بعضًا وتجبرها الحاجة إلى البقاء على تبادل الشك. كان يبكى بينما يأكل بلا حياء، منتزعًا اللحم، مرتجفًا من جوع الأيام، مكلومًا، مذلولاً وفى الوقت نفسه سعيدًا لعودته إلى المغارة وإطعام حواء، والقط والكلب.

كان يهتز قلبها عند رؤيته عائدًا. والجوع فى النهاية كان يدفعها لتتذوق أى شىء تعثر عليه. لم تكن تسأل. تضع قطع اللحم على النار وتأكل دون أن تتنفس تقريبًا. وكم لعنتْ إلوكيم فى مرات ليست قليلة بينما كانت تمضغ. جسدها الثقيل كان يعوقها عن مصاحبة آدم واضطرت إلى تكييف نفسها على الخروج فى الصباحات لجمع الأغصان المتساقطة لتغذى النار، وخلال النهار كانت تخيط الجلود التى يرتديانها.

مع ذلك كانت العزلة تسعدها. لم يهمها بقاءها وحيدة طالما تثق أنه سيعود، وكانت تفضل عدم الشك فى ذلك. ورغم الضباع، كان آدم آمنًا. لا تخف، قالت له، لقد رحلتْ الضباع. أنا لا أخاف، يرد عليها. أنتِ من لم يسترد نفسه من الخوف بعد. فاعترفتْ حواء أنه خوفها الخاص ما يتكلم. فقد كان اللقاء مع الضباع يحفر فى ذكرياتها رعب التحقق من مشاركة الحيوانات، والحاجة لمعرفة ما يعتقدان أنهما قد تعرفا عليه من قبل. وحيدةً فى المغارة، كان الحزن يخنقها أحيانًا. عادتْ لتتذكر مرة وراء أخرى التجارب التى عاشتها والأسباب التى دفعتها لأكل ثمرة التين.

ـرؤى. واليقينيات التى آمنتْ معها بالتاريخ الذى يُفترض أنها قد تفتتحه، كانت تملؤها بالضيق والغضب تجاه نفسها. وكان المنظر الطبيعى يذكّرها أحيانًا بجمال الجنة، لكنه لم يعوّض ألم الجلد المجروح عندما تنزف؛ لم يكن الجمال جمالاً مع الجوع والعطش والبرد.

كانت الحاجة إلى إخراج نفسها من الضيق ما حثها ذات يوم على اختراع طريقة تستطيع من خلالها أن تنظر إليه وتضعه خارجها. ومنذ ذلك الحين، بدا لها أنه حتى الحزن له مسوغ لوجوده.

انتبهتْ أن بإمكانها رسم خطوط سوداء فوق جدران المغارة باستخدام قطع حطب شجرة التين السوداء والمحروقة. شرعتْ فى تلمُّس تأثير ذلك فى أحد الجدران الملساء. صارتْ الخطوط الحمقاء فى البداية أكثر انسيابية مع مرور الأيام. وبينما كانت ترسم على الجدران صورًا من ذاكرتها، كانت ذراعها تمتلئ بسائل دافئ فتتحمّس. فقدتْ يدها الخجلَ وطارتْ وهى ترسم صورًا بالكربون. عرفتْ حينئذ سعادةً مختلفة وغامضة جعلتها تشعر أنها أقل عزلة. كل ما كان مختبئًا بداخلها خرج واصطحبها. بعدها رسمتْ صورًا أخرى. هكذا ظهر مطرقًا الغزالُ المترصد بين الأشجار وثورُ البيسون العظيم. ورسمتْ الشمس بفتات الصخور الحمراء. كما رسمتْ محيط ضفاف النهر وأحجار حوافها، وبدا كأن خرير الماء يرن فى أذنيها.

تخيلتْ كذلك آدم فى جولاته. رسمته طويلاً وضخمًا، أكبر وأقوى من أى حيوان من الممكن أن يصطدم به. رسمته يعبر المناظر الطبيعية اللطيفة، ينام تحت حماية الصخور، دون أن يهدده شىء، وكانت على يقين أن الواقع سيجد الطريقة التى بها يتشابه مع رسوماتها.

وأنا من قضيتُ الليالى خائفًا من أن تلتهمنى الضباع أو الذئاب ـ قال لها ساخرًا ليدارى الدهشة التى انتابته من رؤية صور الواقع فوق الجدران.

لم يتأخر آدم، مع ذلك، فى ملاحظة سلطة الصور. أسعده تخيُّل الرسومات ومعرفة أن حواء قد ترسم رجوعه. ومع كل عودة، كان يروى لها تفاصيل غاراته حتى تعيشها أيضًا وهى ترسمها. كان يُفتَن عند رؤية يدها تتحرّك، وأن تُخرج من بين أصابعها رسمًا، رغم أنه ليس غزالاً ولا نمرًا، إلا أنه يبدو جوهر الغزال والنمر. وتحت ضوء الموقد، وجد آدم متعة حكى جولاته لها. وعادةً ما كان يستسلم لغواية إضافة خيالاته إلى الواقع. كان يتلذذ برؤية عينيها معلقتين بكلماته. وكان ذلك يشبه اصطحابها له ومعايشتها لكل ذلك إلى جانبه.

ومع اقتراب نهاية الشتاء، وبعد أن صار نحيفًا وضعيفًا، توقف الرجل عن الخروج من المغارة. فلم يأكلا لأيام لا تحصى إلا تبنًا وعشبًا وحشرات. جاء زوجان من الخفافيش ليعيشا فى المغارة. فشعرا بطيرانها. ورأياها تنام معلقةً، برأسها لأسفل. فقدتْ

حواء رغبتها فى الرسم. ونال منهما التعب فى محاولاتهما للبقاء، فاستسلما للموت.

لن نخاف الموت بعد ذلك ـ قالت ـ ربما لهذا تشعر الحيوانات بالسعادة يا آدم، لأنها لا تخافه.

ربما لم نكن أبدًا خالدين. ربما كنا نجهل فقط أننا سنموت. ربما كان هذا هو الفردوس ـ قال:

بكت حواء. والآن تبكى بسهولة أكبر. كانت تفكر أن البكاء سيخفف عنها ماء معدتها. عانقها آدم. فلم تبلغ ذراعاه احتواءها كاملةً، وكان يخشى أن يدخل فيها ويصطدم بالكائن الذى يعيش فى بطنها، لكنه وسدها صدره. كان النوم بلسمًا. وصارتْ الأيام السوداء والمظلمة تتشابه مع ليالى القمر المكتمل. كلما زاد نومهما، كانا يريدان مزيدًا من النوم. كانا يستيقظان بالكاد ليرويا عطشهما ويتبولا ويريحا أمعاءهما. ومغلفًا بالبرد، كان آدم يطل من مدخل المغارة ويتساءل إن كانت النجوم رمالاً مضيئة لبحر مظلم على الجانب الآخر من السماء حيث سيغرقان فى النهاية.

من الحلم الذى كانا يموتان فيه دائمًا، متدحرجين إلى هاويات أو مخفقين فى محاولات العودة إلى الجنة، أيقظهما ضجيج مطر اخترق فجوة المغارة.

شعرتْ حواء بنسمة دافئة. فتحت عينيها. نظرتْ إلى آدم النائم خائرًا قوته، بذراع فوق وجهه. تحسستْ

بطنها لتتأكد أنه ليس بحرها الداخلى ما فاض.
جلستْ فوق الحجر، ورأت الماء الذى يهطل بالخارج فى خيوط شفافة ومتلألئة. هزتْ آدم.

إنها تمطر. إنها تمطر ـ صاحتْ بنبرة احتفالية. وكان لديها يقين أنهما لن يموتا من البرد.

كانا قد عاشا شتاءهما الأول.

ـ ١٧ ـ

اغتسلتْ هى وآدم تحت المطر. كانا هزيلين. رأى كل منهما الآخر وأشار إلى عظامه، وشرعا فى الضحك. غسل الماء البارد عماصهما وغبارهما ورائحة العفن. نظرتْ إليه حواء وعرفتْ أنه يفكر فيما تفكر فيه، متذكرةً اللحظة التى عرفتْ فيها أنها موجودة كذلك عندما استيقظتْ بجانبه، وعرف كل منهما الآخر كذكر وأنثى. لم يتكلما عن هذا أبدًا، لكن لهما طريقة لتبادل النظر يعرف كل منهما من خلالها حضور الذكرى. جففا الماء عن جسديهما تحت الشمس. استعادا هيئة وجودهما الأول المنتصبة ونظرته السعيدة. تساءل آدم كم يومًا تراها أمطرتْ بينما كانا يحلمان أنهما يموتان، لأن العالم صار مرة أخرى أخضر ومتلألئًا. بمجرد أن توقف وابل المطر، حملت الريح السحابات فوقها ولمعتْ السماء بزرقة كثيفة بلمعان يوم مشمس.

استندت حواء إلى آدم لتجتاز البرك التى خلّفها المطر مثل عيون لامعة فوق الأرض. لم يكن المنظر قد استعاد نفسه من البرد وحسب، بل إن أغصان شجرة التين، الخامدة والمسودة بفعل الحريق، عادتْ للحياة وارفةً بلا أدنى أثر للكارثة. امتلأت الشجرة بثمرات تين سمينة ومترعة بالعصارة. قطفاها وشرعا فى أكلها. كان لها مذاق يومهما الأخير فى الجنة، لكن أيضًا مذاق لقائهما الحميم الأول. أقصى آدم غضبه العابر عند تذكره يد حواء الرقيقة والكاملة تمد له الثمرة المحرمة. تراجع الحنين العنيد أمام شعور بالراحة لبقائهما حيين ورؤية ألوان العالم تستعيد قوتها.

ساعدها على تسلق جزءٍ من الجبل تأملا من خلاله عشبًا ينمو من جديد فى السهل وعددًا كبيرًا من الحيوانات ترعى بسكينة. أشارتْ حواء إلى النعاج والجياد والغزلان والظباء والأغنام. وبجانبها كانت هناك حيوانات شبيهة لكنها أصغر منها تتقافز وترعى.

سريعًا سيأتى وقتك ـ كانت الحية ملتفة حول غصن شجيرة شوكية.

أنتِ! ـ صاحت حواء.

لقد نمتُ الشتاء كاملاً. نوم طويل. ووقت كثير ضائع.

أيعود الشتاء؟

فى موعده كما الجوع، لكن النباتات ستولد قبله من جديد ويسود طقس حار جدًا. يأتى الشتاء بعد تساقط الأوراق.

وأى وقت تقولين إنه سيأتى لى؟

ألا تخمنين؟

وقت ما يخرج من داخلى؟

إنهما توءمان يا حواء. ذكر وأنثى. ابن وابنة. هكذا ستسمى المخلوقات التى ستأتى منك ومن نسلك.

أبناء وبنات ـ كررتْ حواء.

ومتى سيأتيان؟ ـ سأل آدم.

قريبًا جدًا.

وكيف سيكون ذلك؟

بألم.

نظرتْ حواء إلى الحية بحنق. ألم آخر؟ ألم يكن كافيًا رؤية ما عانياه من الجوع والبرد؟

آسفة يا حواء. اعتقدتُ أن واجبى أن أنبهك. هذا ما قدّره إلوكيم. لا أعرف لماذا يهوى الألم. ربما يريد أن يشعر به. قد يفكر أن ألم الجسد أسهل فى التئامه.

أتتخيلين أنه يتألم؟

أعتقد أنه لم يخلق ما لا يعرفه.

ربما تخيله. ربما لهذا لا يقدّر معاناة الآخرين.

لا تغضبى. الغضب لا ينفعك بشىء. سأنصرف. لم تكن نيتى أن أعكر عليكِ ربيعك.

انسلتْ الحية بجسدها الطويل والمذهب دخلتْ تحت بعض الأحجار واختفتْ.

شعر آدم أنه متطفل على ابتلاء حواء. وواجه صعوبة التفكير فى الآلام تحت السماء العريضة والمضيئة. قد يكون الأفضل عدم التفكير فى هذا، قال لحواء. فإن كان للحيوانات صغارها، فليس هناك سبب لتواجه هى صعوبة أكبر.

أنا لستُ حيوانًا يا آدم.

بالضبط ـ أشار بنبرة المُصالِح ـ لهذا ستنجبين بشكل أفضل منها.

فضّلتْ حواء عدم التفكير فى الألم. هبطا من سفح الجبل وسارا ببطء صوب النهر. مشيا على الضفة تحت خضرة الأوراق الجديدة الرقيقة. عطسا غبارًا كان يطفو غير مرئى فى الهواء. وبين العشب، كانت تطل رءوس زهور برية صفراء وأرجوانية وبرتقالية. فاح عبير الجذور والأرض المسقية بالماء، وكان الهواء ممتلئًا بخفقان مفاجئ لأجنحة فراشات وتغريد مترابط لحشرات تتقافز بغتةً بين الآجام. مَنْ الذى يفهم إلوكيم؟ فكّر آدم، فتلك الأرض التى نُفيا فيها شر نفى بها جنة تحت الجلد. والخضرة التى تكاثرتْ سريعًا ملأت عينيه بالدموع.

بعد أن تشبعا برؤية وسماع وشم انتعاش الأرض التى حسباها ميتة، شرعا فى طريق العودة إلى الكهف. هربت آنة حادة من وراء بعض الشجيرات. أزاحت حواء الأغصان. وفوق العشب وجدت فرسةً ملقية على ظهرها ترفس الهواء بقوائمها، متلويةً من الألم. لاحظتْ حواء أن بطنها منتفخة مثلها وأن عضوها التناسلى ينزف.

يجب أن أرى ما تفعله يا آدم. أعتقد أن وقتها قد حان.

اقتربتْ حواء بحيطة. جثت على ركبتيها بجانبها. تحركت الفرسة كأنها تريد القيام، لكنها تراجعتْ مستسلمة على الفور. حرّكتْ حواء يديها برقة حتى لا تخيفها وربتت على سطح بطنها الواسع. كان جلدها المشدود، المتصلب، الصخرى بشكل غامض والمعدنى، يشبه جلد حواء عندما ينقبض. بيدها اليمنى داعبتْ بوزها الطويل. فنظرت إليها الفرسة بعينين واسعتين ومذعورتين. مع ذلك استمرتْ فى تمرير يدها على بطنها وبوزها وشعر خديها المضغوط، وكررتْ الأصوات التى تستخدمها لتهدئ آدم.

تأمّل الرجل محيط جسد المرأة القمرى والغامض وارتفاع بطن الفرسة المتكور. كان الحيوان والمرأة يتبادلان النظر، وشعر حواء الطويل والأسود يحدّد جانب وجهها المائل.

ما الذى يعرفانه ولا أعرفه أنا؟ فكّر آدم. وأحس بنفس القدسية التى أحس بها لّما رأى شجرة الحياة للمرة الأولى.

كتم كلاهما أنفاسه لّما ظهرت قائمتان صغيرتان من عضو الولادة، وبعد صهيل طويل ومتوجع طردتْ مهرًا صغيرًا، كاملاً، صُنِع على صورتها وشبهها. وملفوفًا بنسيج أبيض، دهنى ودامٍ، استقر الجواد الصغير فوق الآجام. لم يتجرأ أى منهما على لمسه. مرتْ ساعة، بعدها مزقتْ الفرسة بأسنانها الكيس المحيط بالمهر. حاول الحيوان الصغير أن ينهض فوق قوائمه. سقط ونهض عدة مرات حتى حقق ذلك. نهضتْ الفرسة وهى تلهث وراحتْ تلعق صغيرها وهى تتعرّف عليه.

لمستْ حواء حافتها المستديرة. فهرب الهواء من رئتيها فى تنهيدةِ راحة ودهشة. هذا كل ما فى الأمر، فكّرتْ. كان آدم محقًا. إن كانت الحيوانات تفعل ذلك، فلابد أنها ستفعله بشكل أفضل.

ـ ١٨ ـ

بالكاد نامتْ حواء تلك الليلة وهى تتخيل أبناءها الصغار الذين أخبرتها عنهم الحيّة. ضحكت فى صمت حتى لا توقظ آدم، وفكّرتْ كيف صور لها خيالها أولاً، ثم خياله بعد ذلك، أن بداخلها تسكن سمكات ودلافين وحتى حيوانات بحرية. أحاطت بطنها بذراعيها. فكّرتْ فى فَرْجها الصغير والمبلل مثل رخوية مكتنزة. ارتجفتْ. ربما سيحتم تمزقها كليةً. أغمضتْ عينيها بشدة لتُهدئ ارتجافة خوفها المفاجئة. كانت الفرسة قد نهضتْ بعد وعكتها. هى أيضًا قد تنهض. رفضتْ أن تفكّر فى الألم. حاولتْ تخيُّل ابنتها وابنها. أسيكونان شبهها وشبهه؟ أم تراهما سيختلفان عنهما كما اختلف كلاهما عن إلوكيم؟ مررتْ يدها فوق بطنها المشدودة والمستديرة. وانتظرتْ. شعرتْ بحركة مائية، وضربات خفيفة. كانا هناك، كما كانت هى محمية فى ضلع آدم. لكن آدم لن يلد مرة أخرى.

ولماذا تلد هى الآن؟ ولماذا هى من ستُعمّر العزلة التى يعيشان فيها؟ والحياة، أهى نعمة أم نقمة؟ ولماذا يجعلها إلوكيم شريكًا فى خلقه؟

كيف ستكون مخلوقات صغيرة؟ سألتْ الحيوانات. متى سأعرفها؟ ومتى سُيسمَح برؤيتها؟ ماذا سيحدث بالتحديد؟ وكيف ستُعلن عن نفسها؟ وكيف ستعرف اليوم الذى يحدث فيه ذلك؟ وما أول ما يظهر فيها: القدمان، اليدان، الرأس؟

فى اليوم التالى طاردتْ آدم بأسئلتها. ماذا بوسعى أن أجيبك! رد هو. فما سيحدث يكاد لايستوعبه خياله. والتفكير فى أن الطفلين سيخرجان بنفس طريقة المهر يسبب له انقباضًا لا إراديًا فى أسفل بطنه. كان يُفضّل الاعتقاد بأن المخلوقين سيظهران ذات يوم إلى جانبهما، كما ظهرتْ هى بجانبه. بينما كانت حواء مقتنعة بأن الأمر لن يحدث هكذا.

سأتألم. هذا ما قالته الحية. ربما ينشق جلدى. ربما تنكسر معدتى مثل بيضة. أو ربما يخرجان من بطنى مثل الزهور - وابتهجتْ وهى ترى فزع آدم.

كانت تخرج فى المساء خرقاء وبجسد متثاقل. وجدتْ فى أغصان شجرة التين عشًا لزوج من السمان ورأتهما يظهران بحشرات وديدان فى منقاريهما ليطعما صغارًا صغيرة الريش. توارتْ وراء شجرة على ضفاف النهر، فرأت خرافًا وثيرانًا ونعاجًا وحيوانات

متوحشة تصطحب صغارها لتعرّفها على الماء. اعتقدتْ أنها رأت تكاثر القطعان والحشرات؛ وكانت تنصت لصخب الحياة يتضاعف بسَعَر. انغلقتْ على نفسها شيئًا فشيئًا. التزمتْ الصمت وهى تظن أنها تسمع صوت الكائنين اللذين يحتلانها معلنَين أن وقت وصولهما قد حان.

خاط هو عدة أردية من فراء الأرانب، وكان يضعها بجانب حواء كل ليلة تحسبًا لظهور المخلوقين بجوارها.

لم يمض وقت طويل. كانت ساعة الفجر. نهضتْ حواء لتتبول ولمّا همّتْ سال تيار ماء على ساقيها. اضطربتْ. أتكون قد أخطأت وكان بحرًا، بعد كل ذلك، ما كان يعيش بداخلها؟ خافتْ أن تجد نفسها محاطة بأسماك، غير أنها فى شبه الظلمة التى يسطع منها نور شجرة التين لم تجد أية سمكة، ولا أى كائن بحرى.

عادتْ لجانب آدم. لم توقظه إلا بعد ذلك بقليل.

أتألم يا آدم. كأننى أنزف.

نهض الرجل. كان ضباب الفجر المضىء يغطى مدخل المغارة. وكانت حواء تتجول من ركن إلى آخر وهى تمسك بيديها أسفل بطنها.

ماذا سنفعل الآن؟ ـ سأل آدم.

أنا سألزم المغارة. ومن هنا سيخرجان. أنت يجب

أن تكون على الجانب الآخر حتى لا يرتطما بحجارة الأرض.

أتعتقدين أنه سيروق لهما الحياة خارج الجنة؟

أعتقد أنه بدون معرفتهما للجنة، لن يشتاقا إليها ـ قالت هى دون أن تتوقف عن السير.

ألا تعتقدين أنهما سيتذكران كل ما نتذكره؟ إنهما صورتنا.

نحن لا نتذكر ذكريات إلوكيم.

حقًا.

إلا إذا كانت ذاكرته الصوت الذى نسمعه. أحيانًا أفكّر أن دفعتنا هذه لفعل الأشياء بأيدينا، تأتينا منه.

لهثتْ حواء فجأة. توقفتْ. تكورتْ.

يا آدم يا آدم. إنهما يأكلاننى!

ومن لحظة إلى أخرى ملأها الألم كليةً. ساعدها آدم لترقد فوق الحجر حيث ينامان، لكن حواء لم ترغب أن تكون راقدة. وانسلتْ حتى أسندتْ ظهرها على بعض الصخور. أثناء ذلك كان الألم قد خف.

ظننتُ أنهما يأكلاننى ـ ابتسمتْ حواء، غارقةً فى عرقها.

ظنتْ الشىء نفسه بعد قليل، وعادت لنفس الظن بعد فترة أخرى. كان الألم يروح ويعود. بداخلى شىء من البحر، قالت لآدم. يتحرك مثل الأمواج. كل موجة

تنتزع منى شيئًا؛ ربما يكون الابنان ملتصقين بلحمى وإلوكيم ينتزعهما بحجر مسنون ليخرجهما من داخلى.

ازداد الألم. وانتهت التفسيرات التى بها كانت تحاول استيعاب ما يحدث لجسدها. وبدلاً من التعقل، بدأت تقاوم بشراسة، جازةً على أسنانها، منقبضةً كليةً، حاضنة بطنها كدرع، باكيةً وصارخة بكل طاقتها. ومن خلفها، مربتًا على رأسها، مداعبًا شعرها، كان آدم يبكى ويصرخ كذلك. الخفافيش التى صارتْ كثيرة استيقظت من نومها النهارى، وطارتْ صوب أعلى نقطة فى المغارة. كان بكاء الرجل والمرأة وعواؤهما يتصاعد وتتصاعد نبرته كلما اشتد ضغط الوجع، والقبضة المضغوطة التى كانت حواء تخشاها ستنتهى بسحقها. كانت صرخاتها تتشكّل من أحزمة صوتية عريضة ومفتوحة، ترددها المغارة وتنشرها فى العالم من خلال كوّة علوية يمر منها النور. بينما كانت صرخاته جشاء وحائرة، عواءات عجز وغضب. وكان ألم المرأة يرن فى جسده بأكمله. فيبكى بلا سلوى وهو يراها تتوجع.

حملت الريح صرخات آدم وحواء حتى السهل الكبير؛ حيث ترعى الحيوانات، فبعثرتها فى الجبال، وأوقعتها فى النهر.

الحيوانات المذهبة والسنوريّة، الخيول والثعالب والأرانب، الدببة والسحالى والحجل، الأبقار والنعاج

وجاموس المرج، والقرود؛ حيوانات من كل نوع وحجم راحتْ تتبع الصرخات كأنها استدعاء. هبتْ سحابات من التراب تحت حوافر الخيول وبراثن السنوريات السريعة والدببة وثيران البيسون، كأن هذا الصوت بلا كلمات قد استطاع تجاوز حدود النسيان الذى تملكها عند الخروج من الجنة.

كانت الصقور والنسور والزرازير والشحارير والعصافير نقارة الخشب والزرقاء أول ما دخلتْ وحطت فوق بروز جدران المغارة الصخرية، والمكسوة برسومات حواء. شيئًا فشيئًا، وعبر حسرات هذا اليوم المتقاطعة، راحتْ تدخل فى صمت رباعيات القوائم، الضوارى والذئاب. فشعر آدم بلحظة من الرعب عندما رأى نمورًا وخنازير برية وفهودًا تجتاز عتبة المغارة. تحولت صرخاته إلى رجفات صعقة وبكاء سلوى وذهول لمّا دخلتْ فى صف، واحدًا خلف الآخر، الخيول والنعاج والغزلان والبغلات؛ الصائد والفريسة تخلصا فجأة من الجوع والغريزة التى جعلت منهما أعداءً. راقدةً فوق حجر، خاضعةً لألمها، وبرأس مدفون بين ركبتيها، مهدهدة نفسها من الوراء إلى الأمام، كانت حواء تشعر بالحيوانات حتى قبل أن تراها؛ أحستْ أنها محاطة بأنفاس ساخنة ومستديرة، وبهواء كثيف وناعم ملأ الفراغ الذى كان يحيط بها، فسندها. رفعتْ وجهها ورأت الحيوانات التى تتزاحم حولها فى دائرة وتعطيها انطباعًا بالتصالح والتعرّف عليها، كأن الطبيعة عادتْ فجأة إلى الفترة التى كانت

خالية من الريب والموت عندما كانوا معًا يقتسمون هواء الفردوس وبتلاته البيضاء. لمس جوادُ كتفَ آدم ببوزه ولعق فهدُ وجهَ حواء. منذ طردهما إلوكيم من الجنة، لم تشعر حواء مجددًا بهذه الصحبة التى تلفها. ذكّرتها أجساد الحيوانات القوية وتعبيراتها الوديعة بحنين إلى براءتها الخاصة. نهنهتْ ويا للغرابة بحزن سعيد. وانتبهتْ كم كانت مفتقدة لوداعة الحيوانات وبساطتها. شعرتْ بامتنان ورقة عميقين لمّا اعتقدتْ بأن ألمها هكذا قد حرّك مشاعر الحيوانات التى ظنتْ أنها ستستنزف كليةً. وفى هذا الاستنزاف، أرختْ عضلاتها التى بها، بتحدٍّ، تكبح المخلوقات فى بطنها، رافضةً بذلك أن تتقاسم الخلق مع إلوكيم. ولمّا كانت الحيوانات فى صحبتها، ونظرتْ إلى وجه آدم المتأثر والعذب على الجانب الآخر من ساقيها، بذلتْ حواء أقصى ما فى طاقتها وصرختْ بكل قوة رئتيها لتكون بذلك أول امرأة تنجب أبناءً يعيشون على وجه الأرض.

ـ ١٩ ـ

قمر أصفر وهائل كان يطفو عاليًا فى الليل. قطع آدم حبلى خلاص الابن والابنة. حَمَلَ النسر والصقر إحدى المشيمتين؛ وأكل الأخرى نمر صغير ونعجة. كسرتْ رائحةُ الدم الهدوءَ. استمعا لزمجرات خفيضة، حيث الحيوانات الأكثر ضعفًا تسربتْ بأقصى سرعة. بينما الأكثر ضراوة خرجت مناورةً بملامح مفزعة كمن استيقظ من نومه دون أن يعرف مكانه. لم يبق فى المغارة سوى الكلب والقط والخفافيش المعلقة برءوس لأسفل.

بكى آدم وحواء لمّا رأيا رحيل الحيوانات. استمرا فى البكاء دون سيطرة على دموعهما، التى سالتْ بلا ضجيج فى رافد لا يتوقف يشبه فيضان أحاسيسهما المتراكمة. وقد لا يُمحى من ذاكرتيهما أبدًا هذا الحدث الغريب والعصى على الوصف.

فى النهاية عاد الواقع الذى فيه رأى آدمُ حواءَ تدخل رقود الحلم وتخرج منه. لم تكن هى متحمسةً للاستسلام كليةً للراحة. كانت تتملكها رغبة النظر بشكل متقطع إلى الجسدين العاريين والصغيرين اللذين وضعهما آدم إلى جوارها. هو أيضًا كان ينظر إليهما لكنه لم يستطع التركيز بعد. كان يفكّر فى الحيوانات. حيواناتى، كرّر. حيواناتى عادتْ إلىّ. كم كنتُ وحيدًا بدونها! إنها ملكى، لكنها جاءت من أجل حواء، لهذا الألم الذى استثنيت منه.

المخلوقان الصغيران كانا يحرّكان أيديهما وأقدامهما. ومن آن إلى آخر كانا يُفزعان كأنهما يريان كابوسًا. كانا يفتحان بالكاد عيونهما ويغمضانها مجددًا. رقد آدم بجانب الجلد الذى يرقد عليه الصغيران. بينما غرقتْ حواء أخيرًا فى النوم. فشبك أصابع قدميه بأصابع قدميها ونام هو أيضًا.

استيقظت حواء مرات كثيرة أثناء الليل. لم تعد تبكى. كان جسدها يؤلمها لكنه ألم محتمل وخفيف. كيف أطلقتُ صرخات، فكّرتْ. كل ما لم أعرف كيف أعبر عنه أطلقته فى الهواء. ندمتْ؛ لأنه خطر ببالها أن تغلق الطريق أمام التوءم لغضبها من الألم الذى قدّره لها إلوكيم. فكان دخول الحيوانات حلاً لحقدها كأنها جاءت لتغسل قلبها.

عند الفجر فتح آدم عينيه. فابتسمتْ له. نظر الرجل والمرأة إلى الابن والابنة.

إنهما مختلفان عنّا ـ قال آدم ـ لا أعتقد أنهما يستطيعان المشى.

ربما فى خلال عدة أيام ـ قالت حواء ـ فالمهر مشى.

وماذا سيأكلان؟

نظرتْ حواء لوجهى الصغيرين. اقتربتْ. ونظرتْ داخل فميهما.

ليس لهما أسنان يا آدم!.

المهر والعجل يأكلان من أثداء أميهما. ألم تخبرينى أن شيئًا عذبًا يخرج من حلمتيك؟

لمستْ حواء نهديها. كانا يؤلمانها. وكانا كبيرين ومتورمين. رقدتْ وأغمضت عينيها. ما الذى كان ينتظره آدم، ألا يكتفى جسدها بصنع الابنين فقط، بل بتغذيتهما؟ كانت متعبة جدًا. لقد حان وقتها وتجاوز. وكانت الآن تريد أن تنام أيامًا، وتستعيد قوتها، وتشعر أن جسدها عاد لينتمى إليها. بدأ الصغيران يبكيان. وكان بكاؤهما يخترق جلد حواء كأنه يخرج منها. ظلتْ ساكنة، بعينين مغمضتين. كان صوت البكاء حزينًا، بائسًا.

إنهما جائعان يا حواء ـ قال آدم ـ أكليهما ما يخرج من صدرك.

ولمَ لا تجرب أنت يا آدم؟ فأنت أيضًا لك حلمتان.

نظر إليها آدم دون معرفة فيما يفكّر. أخذ أحد التوءمين. رأتْ حواء الصغير يبحث عن صدر أبيه. فنهضتْ. كان السير يؤلمها لكنها خرجتْ من المغارة كيلا تسمع البكاء. ناداها آدم. يا حواء، يا حواء، إلى أين؟ لكنها لم ترد، ولم تلتفت. كانت تود أن تنام وتستريح. فاستسلمتْ للتهاوى تحت ظل شجرة التين. أسندتْ ظهرها إلى جذع الشجرة. وكانت بالكاد تسمع بكاء التوءمين. أغمضتْ عينيها. كانت الشمس تتجه إلى مركز السماء، مضيئةً الربيع الأزرق. صار وعيها دائرة سوداء وتجول صوب سكون النوم.

ليست ساعة نوم يا حواء، استيقظى.

شعرتْ بجسد الحيّة البارد يلمس ذراعها. ولمّا استطاعت أن تخرج من ثقل النوم الذى لاذتْ إليه، فتحتْ عينيها. رأت ذيل الحيوان ملتفًا حول غصن منخفض ورأسه يطفو فى الهواء بالقرب منها.

كان يجب أن توقظينى.

لم يكن بوسعى أن أضيع حدثًا كهذا. انظرى لقد صنعتِ رجلاً وامرأة لإلوكيم.

آلمنى ذلك كثيرًا.

هل لاحظتِ أن الحيوانات تسير على أربع؟

أنتِ تزحفين.

انسينى الآن. وأنت ليس لك جسد مكتنز مثل فرس أو بقرة. أنتِ تسيرين منتصبة. لهذا سيولد

نسلك صغيرًا وضعيفًا. وسيجب عليكِ أن تطعميهم وتعتنى بهم حتى يكبروا.

أنتِ أيضًا ستقولين لى إنه يجب أن أطعمهما مما يخرج من ثديى.

عندما أخرجكما من الجنة، قَلَبَ إلوكيم مسار الزمن. فى الجنة كنتِ خالدةً. وبالتالى ما كنتِ لتنجبى أبدًا صغارًا. فلم يكن ضروريًا أن تتناسلى، لأنك ما كنتِ ستموتين أبدًا. الواقع الآن يجب إعادة خلقه. والخلق يجب أن يعود لنقطة يمكن البدء منها.

لا أفهمك.

نسلك يا حواء، سيعيد الزمن إلى بدايته. يجب أن تطعميهما.

سيشعر نسلى بالجوع والعطش، وبالمعرفة أيضًا؟ وهل سيحلمان؟ وسيتخيلان؟

نسلك صورة منك.

ما السبب - إذًا - فى رأيك وراء فضولى المنهك لمعرفة إن كان حقيقةً ما تقولين، عن أننى كنت قبل ذلك خالدة وكاملة؟ فلا معنى لذلك عندى.

أنت فطنة جدًا - قالت الحية متهكمة - الخلود لا يحتاج إلى معرفة. فى المقابل، الحياة والبقاء يستلزمان المعرفة. المرء يتساءل وينبغى أن يجيب نفسه. فبلا ريب ولا ذهول تصير المعرفة قاتمة. ما الضرورة فى أن يعرف المرء أنه سعيد إن لم ينقصه شىء؟ الكمال جمود. لكنك قد تشعرين بحنين.

حنين؟ أنا لم أعرف حياةً أخرى سوى هذه. أنتِ من أخبرنى أن هناك طريقة أخرى للحياة.

من الممكن أن نشتاق لشىء لم نعشه أبدًا. وربما غرس فيك إلوكيم الحنين حتى تأكلى الثمرة.

أنا لا أعرف بالفعل ما أفكر فيه. ولا أدرك لماذا فعل ذلك.

قلتُ لكِ إنه يضجر. لنفس السبب تخيلى كم هو مسلٍ خلق مخلوق على صورتك وشبهك، وانتزاع كل شىء منه باستثناء المعرفة، ومنحه عالمًا ثم الانتظار لرؤية إن كان قادرًا على العودة لنقطة الكمال الأولى.

وأنتِ كنتِ شريكته؟

كنت أجهل أشياءً صرتُ الآن أعرفها. شرحها هو لى كى يعذبنى. أنا أيضًا قد عوقبتُ. ارتددتُ على عقبى أكثر منكما. انظرى كيف أزحف. أنتِ سيدينك نسلك القادم، لكن بمجرد اكتسابهم مزيدًا من المعرفة ستستعيدين هيبتك. فى المقابل لن يدافع أحد عن حيّة حزينة. وسأصير تجسيدًا للشر.

أنا آسفة ـ قالت حواء.

كنت أعتقد أن إلوكيم لن يتأخر فى إنقاذى من هذا القناع المضحك، لكن الغضب لا يزال مستمرًا لديه.

ربما يتألم أكثر مما نتخيل.

إنه يعرف أكثر من اللازم. والمعرفة والألم لايفترقان. يجب أن أنصرف ـ قالت، وانزلقتْ فوق جذع الشجرة ـ وانصرفى أنتِ واعتنى بصغيريكِ. وانزلى لغريزتك الحيوانية. ما من أحد أفضل منك للقيام بذلك ـ همهمت ساخرة وهى تبتعد بين الآجام.

فى طريق عودتها إلى المغارة، كان التوءمان يصرخان بقوة ظنت معها حواء أنها قد تجدهما قد كبرا. أسرعتْ خطاها. ولمّا وصلتْ كان آدم يحمل أحدهما، وكان الصغير متراخيًا وبرأس متدلٍ.

دعنى أجرب أنا ـ قالت حواء.

وسّدتْه ذراعها. كانت الطفلة. وكانت تصرخ بطاقة رئتيها وبعينين مغمضتين ووجه أحمر. ما أن استكان دفء الجسد فى ضلعها حتى انفلت نهداها وسال اللبن مثل ماء ينبوع. فأمسكتْ مذهولةً رأس الصغيرة وقرّبتْ فمها الصغير من حلمتها.

أعطنى الآخر يا آدم، انتبه له وضع يدك تحت رأسه.

جسلتْ حواء على الصخرة. كانت الطفلة تمص ثديها بضغط. فتدغدغها. وضع آدم الطفل على ذراعها الأخرى. وجلس القرفصاء خلف حواء حتى تستند إلى ساقيه. وفى النهاية ساد الصمت. فتنفس آدم الصعداء.

وجدتُ الحية بالخارج. تقول إن نسلنا سيكون ضعيفًا. وعلينا أن نعتنى بابنينا حتى يكبرا ـ همستْ.

لوقت طويل؟

لم تخبرنى.

شىء غريب ـ قال آدم: تفعلين ما تفعل الحيوانات دون أن تشبهيها

نعم أشبهها، لكن لا يهم. يهمنى ما نحن عليه الآن. أرأيت كيف بدأ لبنى فى التدفق بمجرد ما شعرت بجوعهما؟ كأن جسدى يطيعهما. رغم أنهما صغيران. انظر إليهما. لا فائدة من تكبرى.

أهذا ما قالته لك الحيّة؟

شىء كهذا. فهى لم تدرك كذلك ما حدث كليةً. نعم يروق لها التظاهر بالمعرفة، لكن من الصعب فك ألغاز ما تقوله.

كانت عينا الرضيعة مفتوحتين ورماديتين. وكانت الرضيعة مغطاة بطبقة دهنية بيضاء، وملامحها رقيقة وكاملة بشكل مدهش. أما بشرة الرضيع وشعره فكانا أكثر سمرة. وعيناه رماديتان أيضًا. كيف استطاعا البقاء حيين لأشهر طويلة بلا خياشيم ولا حراشف، طافيين فى ماء أمعائها الكثيف مثل سمكتين؟ يا للغموض، فكّرتْ.

بعد أن شبع التوءمان، أمرت حواءُ آدمَ أن يغسلهما. قام بذلك بحيطة كيلا يرعبهما. كان شعر الأنثى فاتحًا، وكان الرضيع ينظر إليه بحملقة. غسل الأيادى والأقدام الصغيرة، والمؤخرتين الصغيرتين.

نظف وجهيهما، وتفحص أذنيهما متناهيتى الصغر وفتحتى أنفيهما. أدخل إصبعًا فى فميهما وتحسس لسانيهما.

تابعته حواء بنظرها بفضول وتسلية. كانت تشعر أنها تفيض لبنًا؛ ثديها ممتلئ وقلبها كذلك.

لابد أن نسميهما ـ قالت.

كيف كانا قبل ذلك إن كانا قد ولدا بهذا الحجم الصغير؟ تساءل. ما من أحد كان يغسلهما ولا ينظر إليهما بهذه الخفة الرطبة.

ـ ٢٠ ـ

فى اليوم التالى كان المطر خفيفًا، فخرج آدم من المغارة مصطحبًا كلبه قابيل. لم يتوقف عن التفكير فى لغز هذين المخلوقين الخارجين من نفق مظلم ظن أنه قد يختفى بداخله أكثر من مرة. كانت حواء ترتجف إن ضحكتْ بعمق. وكان التقاط هذه الرجفة بالنسبة إلى آدم استنشاقًا لهواء الفردوس من جديد. تساءل إن كان الآن، فى المقابل، سيتذكر الألم الذى رآه فى وجهها، فى جسدها المنتفض والمثقل لتطرد من داخلها ثمرة بذرة قد يكون هو نفسه قد ساعد فى نموها لمّا رواها بالسائل الذى يخرج من قضيبه. لكن ما من شجرة تبكى عند الولادة. النباتات تظهر دون ضجيج. وعلى عكس ذلك، الحياة تنبت من حواء كأنها كارثة. هو لم ينزف، لم يتغير شىء فى جسده، ولم يؤلمه فسيولوجيًا فى تلك الولادة شىء. لماذا هو لا وهى نعم؟ ما معنى ذلك؟

سار صوب النهر وفى نيته رمى الشبكة وصيد بعض الأسماك.

كانت الأرض المبلولة تنفض سطحها فتبعثر الماء فى شكل ثعابين نحيلة تشكّل دلتات كثيرة فى الطمى الأحمر. كان قابيل وآدم يخطوان بثقة ويقفزان بين البرك، مستنشقين الروائح القوية. فجأة توقف قابيل. رفع أذنيه ونبح. بين الآجام لمح آدم دبًا صغيرًا، جروًا ينظر إليهما بفضول. عاتب آدمُ قابيلَ. فبعد أن رأى الحيوانات تحيط بحواء، تخيل أن علاقته معها قد تعود لما كانت عليه أيام الجنة. كان مشغولاً بالحيوانات الصغيرة التى عليه أن يستمر فى صيدها، لكنه كان مقتنعًا بأنها كثيرة؛ لأنها خُلِقتْ لتكون غذاءً لهما. اقترب من الجرو؛ ليهدئه بأبوة ومودة. لم يتحرك الدب الصغير. وكان آدم على وشك أن يمد يده ويربت على رأسه عندما سمع ضجيج حيوان كبير يقترب مثيرًا طقطقة أغصان وأوراق شجر. كانت الدبة الأم تركض نحوه. وفى حيرة أمام عودة الشك المفاجئ والعدوانية، قفز آدم إلى الشجرة الأقرب منه وبدأ يتسلق مرعوبًا. طاردته الدبة مزمجرةً وغاضبةً. شعر آدم بمخالبها تخربش بطن قدميه. آلمه جلده وقلبه. قفز قابيل لحمايته وهاجم خاصرتها. كان الكلب قويًا، ببوز قصير ورأس صلب ومستدير. فوجئت الدبة وضايقها تدخله، فسددت له ضربة من بين الشجيرات. عاود قابيل الهجوم. فتوقفت الدبة. صاح آدم من فوق الشجرة. انتبه يا قابيل، دعها فى سلام.

كان الكلب يغرز أسنانه فى قوائم الدبة ومخالبها. عاجزًا عن كبح غريزته والتراجع. اشتد غضب الحيوان الضخم وانقض على الكلب فجأة. آخر ما شاهده آدم كان رقبة قابيل بين بلعوم الدبة، التى كانت تنفضه من جانب إلى آخر. وصارتْ عواءات الكلب رجفات ألم حادة، آنة طويلة وحزينة، وكانت كلمة مذعور آخر ما سُمِع قبل أن تترك الدبة جسده بلا حياة عند قوائمها، وترفع عينيها صوب الغصن المتعلق عليه آدم.

لا يعرف الرجل كيف قتل الدبة، استرجع رائحة الحيوان ومخالبه الملطخة بدم قابيل الحار، وقوته الهائلة، لكنه تذكر أيضًا قوة غضبه اللانهائية والحجر الذى هشم به وجهه وعينيه وأنفه.

كان ينزف. كان مخدوشًا ومنهوشًا، لكنه حى. إصاباته يمكن التئامها. على عكس قابيل الملقى على الأرض، بعينين مفتوحتين ومجردتين من نظرته الوفية والمتيقظة، عاد آدم إلى نفسه. لم يكن يعرف إلى أى حيوان تحول فجأة. حيوان قادر على قتل دبة بيد عزلاء. كان جسده ينتفض كأن الريح تضربه بسوط. جثا على ركبتيه. لمس جبهة الكلب وأذنيه. كان باردًا وضامرًا، وبرأس رخو يستند إلى جذع الشجرة. حمله وعانقه. لقد رأى من قبل بقايا حيوانات كانت تخلّفها النمور والأسود. ولم يكن يفكر فى شىء عند رؤيتها سوى أكلها. لم يكن يفكّر فى كيف ماتت، والآن فكّر فى كل هذا. الموت لم يتغير، لكن كلبه كان مختلفًا.

كان يعرفه. كان يتكهن بما يفكر هو فيه. وكان يحميه. ويلعق يديه، ويلوذ به ويدفئه بالليل. كان مختلفًا. جلس على الأرض بجانب الكلب. تذكّره وهو يلعب. فبكى. غطى وجهه بيديه ولم يتملك حزنه.

دفن قابيل. وسلخ جلد الدبة. وراح حتى النهر واغتسل من الدم. ثم رجع إلى المغارة.

أعرف بماذا سنسمى الطفل ـ قال لحواء ـ سنسميه قابيل.

لم يرُق لها ما رأته فى وجه الرجل. كانت مثله تحب الكلب. وبكت من أجله. ستشتاق إليه، لكن رنين اسم قابيل لم يحلُ لها عندما أخبرها آدم أنه سيكون اسم الولد.

أعتقد أن علينا أن نسمى الولد باسم آخر.

لا. إنه اسم حسن.

لكن هذا الاسم سيجلب لك الألم دائمًا.

سيتجاوزنى الألم.

قتلت الدبة يا آدم وأحضرت فروتها ـ قالت حواء ـ هذا يخيفنى. إنها حيوان ضخم. لم أظن أن قتلها ممكن.

ولا أنا. ولا أستطيع شرح كيف فعلت ذلك. كان بوسعى أن أفعل أى شىء.

لقد غضبت وعاقبتها.

نعم.

إلوكيم أيضًا أداننا بالموت.

الموت. كلبه صار بلا حياة. بوزه جاف. عيناه مظلمتان. رأسه متراخٍ. وعند دفنه كان باردًا، متصلبًا. وفى لحظة واحدة كل ما كان يجعله قابيلاً، اختفى. وما تبقى من الكلب يوجد الآن فقط بداخله، وبداخلها، وفى رسومات جدران المغارة. كانوا من التراب وإلى التراب يعودون. هل سيعرف الآخرون ذات يوم فى أى جزء من الأرض استقرت حواء، وآدم، والطفلان حديثا الولادة؟ ومن سيتذكرهم؟ وكيف سيتذكرونهم؟ تذكّر حلمه حين رأى أشجارًا برءوس بشرية تتساقط مقطوعة. لا فائدة تذكر من إتيان المزيد والمزيد من الرجال والنساء إلى الحياة. كلهم سيموتون. واحدًا وراء الآخر. وسيبقون بأفواه جافة وعيون مظلمة. بأجساد باردة. متصلبة. مثل قابيل. ومع ذلك سيشعرون بالجوع والحنق كل يوم ليبقوا على وجه الحياة. كان آدم مندهشًا من رؤية نهم الطفلين لثدى حواء. تسكن الرغبة فى الحياة بداخل كل حيوان، كل نبات، كأن الموت لا يهم، كأن الموت محض أكذوبة.

تحول غضبه إلى حمى استقرت فى أعلى فخذه. وكان جسد حواء يشع ببياض اللبن السائل من ثدييها. فى ظلام المغارة، ونائمةً مع ابنيها على فروة الدب السوداء، كان جلدها يبرق سابحًا خلف ومضات النار الذهبية والبرتقالية، عاكسًا استدارة جديدة ومضيافة. أوقفتْ هى دفعاته حتى تراجع خوفها من

أن أحشاءها ستؤلمها. بعدها احتفلتْ معه بجديد خصرها المستعاد من البحر. وأثناء الليل، لاصقًا جسده بجسدها، كان آدم يستحضر باستمرار القسوة التى بها مزق الدبة وتؤلمه يده المستندة إلى عظام المرأة الرقيقة. بالنسبة إليها، لم ترسخ الأمومة الصورة الخارجية فحسب، وإنما رسخت الوعى بسلطة أكبر بكثير من القوة. وانتبهتْ أنه يدرك ذلك، ولهذا لم يكن يُرهق من سؤال أحشائها، والاستقرار فى مكمنها المظلم والرطب.

هكذا مضى زمن قصير ما بين ميلاد التوءمين وهاجس حواء بأنها تأوى بداخلها مخلوقات أخرى. كانت موجات بحر آخر تضطرب فى بطنها. تذكّرت الحية وهى تخبرها أنها ستكرر التجربة. ورغم أن ذلك كان ضد إرادتها، إلا أنها ظنت أن للجسد مبرراته. وخلافًا للمرة الأولى، لم تشعر بالخوف. كان ألمها ينطوى سريعًا. كان يمحيه دهشتها من رؤية مخلوقين آخرين صغيرين يبدءان ليكونا مثلهما، ولغز أنهما كائنان لا يمكن التنبؤ بمصيريهما، ومع ذلك، ويا للغرابة، هما جزء منها. بكاؤهما، جوعهما، بردهما، ينتسبان إليها. غير أنها لم تفقد شيئًا من ذاتها. وكثيرًا ما كانت تجد السكينة وهى مستلقية بجانب الرضيعين اللذين يتغذيان منها. السماء والنهر، والطبيعة التى تتشكّل أمام عينيها وتغرب، والليل وأنواره اللانهائية، والبحر المنغلق بشكل سرى، والشمس والقمر، والأشجار والحيوانات، كل ذلك

يحوى سعادة رغم أنها خفيفة ومهددة إلا أنها لا تخلو من غزارة. كانت رؤية صغيريها يتفاعلان مع سلواها ومداعباتها وتعرّفهما عليها، ورؤية طرب عيونيهما وأيديهما الصغيرة عندما يقتربان، تجعل من الصعب مع مرور الوقت أن تواصل تفكيرها فى أنها ضحية لعقاب متعسف وعظيم.

٢

اكبروا وتناسلوا

ـ ٢١ ـ

نظر آدم إلى التشققات فى الأشجار. صارت كثيرة. وصارت أغلب الأشجار فى الطريق من المغارة إلى النهر مخططة جذوعها. لم يكن يعرف العد، لكن يكفيه رؤية أشجار كثيرة مجروحة ليعرف أن هذه الأرض التى يسكنها تستهلك حياته شرخًا وراء آخر. لو كان ذلك قليل، فآثار الزمن تُطبع على جسدى ابنيه. هكذا كانت حواء تعد الأيام: برؤيتهم يكبرون.

وكبروا ـ بالفعل ـ رغم أنهم لم يبلغوا النضج. وكان هابيل ولبودا أصغر من قابيل وإقليما، مع أن الفرق بينهم لم يكن ملحوظًا. وكان الزمن الذى استغرقوه هم الأربعة ليتعلموا المشى والكلام والاعتماد على النفس يبدو لا نهائيًا وهو يمضى، غير أن آدم الآن يحن إليه. لم يكن من السهل فى شىء تعليمهم أمور الحياة. ولم يستطع أى منهم المشى إلا بعد الزحف على أربع. وكلما حاولوا الوقوف، وقعوا

وارتطموا بالأرض. ولا كان يبدو حتى أنهم يفكرون فيما يمكن أن يحدث لهم فى الأماكن الوعرة، أو بالقرب من الصخور. على حواء وآدم أن يقوداهم من أياديهم. تذكّر آدم كم كان يؤلمهما ظهراهما طوال اليوم، وهما منحنيان يمسكان بهم فى خطواتهم الأولى. لم يكفا عن مراقبتهم أبدًا. وما كان ينقصهم من المهارة كان يفيض عنهم فى الفضول. كانوا مثل أمهم. يريدون لمس كل شىء، لكنهم يجهلون أن النار تحرق وأنها من السهل أن تؤذى. كانت حواء تقول إنهم كذلك لأنهم يفتقرون لمعرفة الخير والشر. أعطتهم ثمرات تين ليأكلوها، لكنها لم تترك أثرًا كبيرًا. ولم يكن آدم يدرك أن أبناءه جاهلون لهذه الدرجة. اعتاد أن يفكّر فى أنهم سيشبهون الحيوانات أكثر بما أنه هو وحواء يتقاسمان معها ملامح مشتركة. فالقط - مع ذلك - لم يلوث المغارة أبدًا بفضلاته، لكن الصغار كانوا يتبولون ويتغوطون حيث يشعرون بالحاجة لذلك. وبعد نضال عنيد استطاعوا أن يفهموا أنه ينبغى الخروج من المغارة وتغطية فضلاتهم بالتراب. وما بدءوا فى الانتباه إلا مع بداية تكلمهم. وكان فهم كلامهم فى البداية عملاً شاقًا. وقبل الولدين، استطاعت إقليما ولبودا أن يقولا ما يرغبان. وكان ذلك بالنسبة إلى آدم وحواء زمن الضحك. كانا يموتان ضحكًا مع سماعهم يقولون: ماء، قط، ثدى. لكن مع مرور الوقت، لمّا امتلأت أفواه الأربعة بالكلمات، انتبها أن كلاً منهم مختلف تمامًا عن الآخر. فكرا فى أن بوسعهما تعليمهم كيف يعيشون، لكن دون أن يحبسوهم فى المغارة.

كان خوف حواء من الشتاء ومن ألا يصير لبنها كافيًا لتغذيتهم دافعًا ليتحول حدسها بالأرض وثمراتها إلى معرفة يقينية بالنباتات. فصار ينمو حول المغارة الآن لوز وكمثرى وعنب وقمح وشعير وجذوع تؤكل. وورث قابيل وإقليما من أمهما مهارة زراعة البقول والأعشاب. وهما من كانا يهتمان بالحديقة، بينما أبدى هابيل من صغره ميولاً لمعرفة الحيوانات، وربى نعاجًا يحلبونها وأغنامًا تغزل لبودا فروتها بحيث تصير رداءً يكفيهم الحاجة عن قد القتل ليتزودوا بملبس.

لم تشعر حواء بنوستالجيا لطفولة التوائم. ولم تتحسر مثل آدم على السرعة التى بها قد كبروا. كان يقول إنه لا يزال يراهم صغارًا يتجاسرون لينهضوا بمفردهم ويترنحوا ويسقطوا أرضًا، بينما هما يراقبان ما بين المرح والخوف. كانت حواء تكتنز هذه الصور برقة، لكنها تفضلهم الآن وهم يعتمدون على أنفسهم. لم تنس التعب العميق؛ حيث لم يسمح لهما الأبناء بالتنفس، وحيث كانوا متعلقين بهما، كأن أجسادهم تنتمى إليهما. وبينما كانا يتعلمان زرع الأرض والتزود برداء وغذاء ـ بحيث لم يتحتم على آدم الخروج وتركها بمفردها مع استحالة مراعاة الكائنات الأربعة الصغيرة والضعيفة ـ عاشا حياة بداوة، متنقلين من مكان إلى آخر وحاملين الأطفال على خصريهما. فى الشتاءات الأولى، تحتم عليهما اتخاذ المغارة ملاذًا، والانتقال ليلاً ونهارًا إلى عالم من الهمهمات حيث لا

تحل الكلمات شيئًا وحيث صارت الفطرة دليلهما الوحيد. عانى آدم أكثر منها من تغيير روتينه، لكنه كره رحلاته الطويلة والصيد؛ لأن حنقه من أن يقع لهم مكروهًا كان يدفعه للعودة مهرولاً. وفى النهاية وصل لخلاصة مفادها أن الجوع معًا أفضل من المجازفة بمواجهة أخطار العالم التى ستفرقهما. كان قاسيًا بالنسبة إليها أن تعتاد على رؤية جسدها وقد تحول لطعام لأربعة أزواج من العيون التى تطلب منها أن تقدّم نفسها لهم ليلتصقوا بثديها. ولأنها شعرت بالخزى من مشاعرها هذه، لم تبح أبدًا لآدم أن رغبات الهروب كانت تواتيها بتكرار. فمنذ شهد الولادتين وتحقق أنها قادرة ليس فقط على صنع مخلوقات، وإنما أيضًا على تغذيتها، اعتبرها آدم معجزة. كان يؤكّد أن إلوكيم قد منحها سلطة واسعة وجعلها تعانى من الدم والآلام آملاً تفادى أن تتحداه. ولم تكن حواء تنفى ذلك. كانت معجبة بعناد آدم العذب، وتكريس وقته للمهن التى يخلقها لنفسه باستمرار، والرضا الذى تبعثه فيها سيطرته وفهمه لما يحيط به. مع ذلك، كان عنيدًا ويصر على القيام بأعماله دون أن ينتبه لأثر ما يقوم به مع مرور الوقت. كان يصعب عليه الصبر ورؤية سير الأشياء الطبيعى وتركها تجرى وفق ميولها وحكمتها. كان ـ دومًا ـ متعجلاً. لهذا، رغم أنه يعرف دورة ثمرات الأرض، كان يفضّل الصيد، كل ما هو فورى، وما يجلب له مكافأة أسرع لجهوده.

في المقابل، كانت حواء تشعر مسبقًا بما يحدث حولها كأن نظرتها تتمتع بخاصية الرؤية من خلال عينين غير عينيها. ولم يكلفها جهدًا أن تستمع بداخلها ما قد يفكّر فيه الآخرون. وفى الوقت الذى استغرقه التوائم ليكبروا ويصلوا للبلوغ، بدا لها أن جلدها صار ممتلئًا بآذان وبصرها بحاسة لمس تتحسس بها ضيق أو توتر مشاعر أبنائها. كانت تقرأ أرواحهم وعلامات مهاراتهم التى كانت تدهشها على الدوام. لقد فتح لها الخروج من نفسها هذا التناسل، وبصورة غامضة، طريقًا لفهم لغات الحياة السرية. إلى حد أنها كانت تحدس مزاج النباتات والأشجار والسماء. ومع ذلك، لم تستطع أن تتخيل إن كان أبناؤها يمتلكون مثلهما معرفة الخير والشر، إن كانوا سيفقدون براءتهم دون أكل أية ثمرة محرّمة، إن ظلوا أبرياء كما كانوا، أيتعلّمون الحياة فى عالم مثل هذا، حيث أسئلة بلا إجابات، وحيث القتل ضروريًا من أجل الطعام والبقاء.

فى الحياة التى استقروا فيها، كان هابيل وآدم لايفترقان. وقابيل وإقليما كذلك. وكانت حواء تقضى معظم وقتها مع لبودا الضئيلة، التى بكى آدم عند رؤيتها. كان مولدها سريعًا وبلا أحداث ولا معجزات. حواء وآدم وحدهما كانا واثقين مما يعرفانه. بدا لحواء أن ولادتها أقل إيلامًا. ربما لأنها كانت تعرف ما ينتظرها وأعدت نفسها للمعاناة. أطل هابيل أولاً. كان أكثر سمرة من قابيل، وأكبر حجمًا. شديد البكاء

وبعينين مفتوحتين. وبعد راحة طويلة، عاد الألم من جديد. طردتْ حواء لبودا، كانت مخلوقة صغيرة، بعينين مغمضتين بشدة، ووجه مغطى بزغب أسود، وجبهة ناتئة، وشفتين مكتنزتين جدًا. قطع آدم كلا الحبلين. ولفا الوليدين بنعومة بأذيال ثعالب. تجول آدم مع لبودا فى المغارة. واصطحبها بجانب النار. نظر إليها وقال إنها تشبه القردة، ولا تشبه الكائن الإنسانى. اختفى زغب وجه لبودا بعد مولدها بقليل، لكنها احتفظتْ بوجهها الصغير، وبالتقاطيع التى تجمعت فى وسط وجهها تحت الحاجبين الكثيفين، فم عريض وبارز، شعر قليل ومتفرق وأسود مثل حطب مبلول. كانت عيّناها جميلتين ولامعتين، غير أنهما صغيرتان. وبالإضافة لذلك، كانت قدما لبودا ويداها الأجمل من بين كل الأبناء. وكانت ذكية وماهرة. وكانت تحدس استخدامات الأشياء. فتصنع من العظام إبرًا، وتختاط الجلود، وتغزل صوف النعاج. كانت رشاقتها وحجمها مزية. لم يضاهها أحد فى تسلق الأشجار وجمع البلح من أعالى النخل. وحمتها حواء ودللتها لتعوّضها بشكل ما عن نقصان الهبات التى ولدت بها. ورغم أن أخوتها أجمل منها وأكبر جسدًا، بدا لحواء أن لبودا أكثرهم قوة، وأقربهم لجوهر ما يحيط بهم.

منذ زمن تتساءل هى وآدم عن الحكمة التى من أجلها جعلهما إلوكيم ينجبان زوجين من التوائم.

اكبروا وتناسلوا، هذا ما قاله، ولم يكن أحد يسكن هذا العالم سواهما.

سيكون قابيل زوجًا للبودا وهابيل زوجًا لإقليما، أكّد آدم. هكذا تمتزج دماء الولادتين. فليس من المستحسن أن تمتزج دماء نفس البطن. هذا ما أخبره به إلوكيم من خلال حلم، حيث رأى نفسه عائدًا إلى الجنة. كان حلمًا ملتبسًا، قال. كانت الجنة تبرق وهى هرمة وخربة. وكان يسير بصعوبة فى الوحل وبين كم جذوع الأشجار المتساقطة على الأرض. كان يطفو بخار مبيّض ورطب بين أغصان أشجار هائلة وتتدلى منها سراخس شاحبة مثل شعر أشعث. كانت نباتات متسلقة ذات أوراق مسنونة وكبيرة تخنق أشجار أرز ضخمة، وكان النور يتسرب بالكاد من فجوات السماء المفتوحة وسط هذه الفوضى النباتية والمستنقعية، التى فيها كانت الأنواع تتثاقل بعضها على بعض، وتبدو كأنها فى صراع مميت. وأثناء سيره بلا قبلة، رأى آدم لبودا تعبر من غصن إلى غصن، وتتبعها غوريلا بعينين حزينتين جدًا. ورأى قابيل يتبعها، محاولاً إسقاط الأشجار واحدة وراء أخرى، بينما هى تتفادى مدقة خشبية يضرب بها الأغصان والجذوع. ورأى هابيل نائمًا وإقليما جالسةً بجانبه بيدها فوق وجهه. وكان هو يحدث أبناءه، يأمرهم أن يعودوا، لكنهم لم يكونوا يسمعونه. كانوا قريبين جدًا لكن كأنهم بعيدون جدًا. حينها، حدث ما أرعبه، تكلمتْ الغوريلا بصوت إلوكيم: هابيل مع إقليما وقابيل مع لبودا، لا ينبغى أن تمتزج الدماء، أرعد بصوته. استيقظ آدم على صوت هذه الكلمات يتردد صداه فى نور الصباح.

تكرر الحلم مرات كثيرة منذ كان الأبناء صغارًا. حلم فظيع، كان يقول لحواء. حلم يخنقه ويخرج منه حانقًا على الدوام، لكن لأنه يأتيه بإصرار، اعتبره آدم علامة واضحة لإرادة إلوكيم.

كانت حواء تخشى الشفقة التى تثيرها لبودا فى نفس آدم. فقد كان يعاملها بتفضيل. وعادةً ما كانت تفاجئه وهو ينظر إليها بملمح غير مصدّق فى وجهه، كأن من الصعب عليه قبول أن تكون قد ظهرتْ بينهم بنفس الطريقة التى ظهر بها الآخرون. بدا طبيعيًا لحواء أن يتقاطع التوائم فى زواجهم، بخاصة عندما فكّرتْ فى أنه لو لم يولد مع كل ذكر أنثى، لكان عليها هى أن تتناسل من أبنائها. فظيع هذا العالم، كانت تفكّر هكذا فى مرات ليست بقليلة. فظيع الارتياب فى حياتهم، كل ما يجهلونه، رغم العقاب الذى عانيا منه من أجل المعرفة. كيف لا تتخيل أن إلوكيم يسخر منهما؟ إلوكيم القاسى. أب قاس يهجر مخلوقاته. والآن وقد صارت أمًا يبدو لها سلوكه أكثر غموضًا. الأمومة لا تنتهى إطلاقًا. كما لا ينتهى الألم. أبناؤها الآن صاروا مراهقين. وسريعًا ما سيتحتم عليهم التزاوج. ولأنها تعرف أحلام آدم والمصائر التى تجلبها، حدست بينما كانوا يكبرون أنه ما من طريقة لتجنب المعاناة. كان قابيل قويًا منذ صغره. شديد البأس. يرتطم ونادرًا ما بكى. كأنه منذ نعومة أظافره يحتفظ بوعى بالغ ينتظر بصبر نضج جسده. وبالنسبة إليه، كانت إقليما، إقليما الجميلة، بداية سعادته ونهايتها.

وكانت حواء تراهما مثل وجه كائن وظهرهْ لا يكتمل وجوده إلا عندما يجتمعان معًا. كلاهما كان صموتًا، متجهمًا مع الآخرين، لكنهما دافئان وبشوشان فيما بينهما. كانا يمتلكان مَلَكَة التفاهم بمجرد تبادل النظر. وكان جمال إقليما الكامل، الذى كان يربك هابيل وحتى آدم، طبيعيًا جدًا بالنسبة إلى قابيل مثل ازدهار شجرة متأهبة لمنح ثمراتها. كونه يراها بهذه الشفافية لا يعنى ـ مع ذلك ـ أنه غير مبالٍ بجمالها. على العكس، كان يسعده لأنه كان على يقين أن إقليما زوجته، التى ستعيش معه إلى الأبد.

هل أنت واثق يا آدم أن إلوكيم قال ألا تختلط الدماء؟ فالحيوانات تختلط.

تعرفين جيدًا أننا لسنا مثلها.

لا أستطيع مخالفة أحلامى، قال هو. وكان يعذبها احتمالية أن يكون حلمه انعكاسًا لتفضيله لهابيل. فموهبة هابيل فى التواصل مع الحيوانات كانت تذكّر آدم بالطريقة التى بها كانت تطيعه هو فى الفردوس. كما كان جميلاً مثل إقليما. تفوق قامته قامة أبيه. وكان حيويًا وجهه النحاسى بأنفه الطويلة والمستقيمة، وجبهته المرتفعة ووجنتيه العاليتين، وكانت عيناه، مثل عينى أخته، بلون أوراق شجرة الحياة الفاتح. قابيل كان أصغر حجمًا. وكانت ملامحه متناقضة مع ملامح أخيه، لكنها كانت مريحة بل وحتى جميلة. مع ذلك، ربما لأنه شعر منذ صغره أن

ميله إلى الزراعة وصمته قد خيب أمل أبيه، تحول قابيل لصبى نفور وصموت. كان يسير منحنيًا. وكلما حدثه أبوه، كان يخفض أمامه النظر. كان حزينًا ـ بلا شك ـ من المقارنات المستمرة بينه وبين هابيل وحتى بينه وبين الكلب الفطن والوفى الذى ورث اسمه. مع حواء عثر على إيماءات رقيقة تعوض صمته. فكان يأتيها بثمرات الكمثرى الأكثر عذوبة، نتاج سعيه الدءوب ليضاعف النباتات بمزجها فيما بينها وريها بماء الينبوع عبر قنوات شقها بيديه. كانت إقليما وقابيل يحصدان زرعات غريبة تذوقتها حواء ولبودا فأمرضتهما أكثر من مرة. لكن إذا كان ظهور قابيل وإقليما لا يحدث ضجيجًا بسلالهما النباتية، فدخول هابيل إلى المغارة كان انتصارًا: كان يأتى بلبن النعاج التى تسير وديعة فى قطعان، ويصطاد الغزلان، ويرعى الأغنام، ويربى مزيدًا من الكلاب وحتى يسعى لتقاسم الغنائم مع طيور مثل الصقر. وكان من الصعب مقاومة طيبة هابيل البريئة. كانت حواء مقتنعة بأنه لن يعرف شيئًا عن غيرة أخيه. كان عالم هابيل بسيطًا وهادئًا. يدعمه قبول أبيه المستمر وإطراؤه وصحبة الحيوانات. يقضى أيامه مبتسمًا، يستكشف غابات النهر البعيدة، ويعود عند غروب الشمس بحكاياته. وبينما كان قابيل مستاءً؛ لأن إلوكيم قد طرد أبويه من الفردوس، كان هابيل، على العكس، يريد كسب رضاه. وعلى الحجر الذى لم يكف آدم عن تقديم أولى ثمار عرق جبينه إلى الآخر، قدّم هابيل أيضًا قرابينه.

هابيل أكثر بساطة. سيعيش أفضل مع لبودا. نعم ليست جميلة، لكنها تعرف إدراك العالم. لقد عرفت صنع صنانير صيد من عظام الغزلان، وصنع إبر من أشواك السمك. كما أنها تفكّر أكثر من إقليما ـ ألحت حواء.

لو لم تشغلى بالك كثيرًا بقابيل، ستنتبهين أن لبودا تحبه هو وليس هابيل.

ستحب هابيل. فمن السهل أن يُحَب.

لا أقول إنها لا تحبه. لكنها تفضّل قابيل.

متى تعتقد أنهم سيشرعون فى النظر إلى بعضهم البعض مثلنا بعد أن أكلنا ثمرة الشجرة؟

لا أعتقد أنهم سيتأخرون فى ذلك يا حواء.

هل لاحظت أن لبودا وإقليما صار لهما ثديان؟

نعم. وبمجرد أن تنزفا، علينا أن نهب لكل واحدة منهما زوجًا.

كم أخاف هذا اليوم يا آدم.

-٢٢-

غرس آدم أوتادًا منذ فترة طويلة عند مدخل المغارة ليمنع دخول الحيوانات وهجومها عليهم. مع ذلك، كان من الممكن أن يحدث ذلك فى أى يوم. فالآن زاد عددهم. يحتفظون بالأغذية، ويطبخونها. رائحة حيواتهم كانت تطفو من بعيد. وكلما قل الغذاء وعاد البرد، تقع المخاطر. وحانت ساعة خروجهم من هناك. شرعوا فى البحث عن مغارة أخرى. كان هناك الكثيرات فى التكوينات الصخرية المحيطة، لكن ما يحتاجون إليها يجب أن تحوى مدخلاً عريضًا يمكنهم أن يحفروا أمامه خندقًا. فلا يمكن الدخول إليها. هم وحدهم من يستطيعون عبوره سيرًا فوق جذوع ينتزعونها بالليل.

فكرة قديمة، قالت حواء. هكذا منعهم إلوكيم من العودة إلى الفردوس. إنها فكرة الهوّة.

سيخلقون الآن هوتهم.

عثرتْ لبودا وحواء على مغارة تناسب أغراضهم. كانت عريضة، عالى سقفها ويضم فجوة فى جزئه الأعلى يمكن منه خروج دخان الموقد.

عثر قابيل على جذوع يمكن بطرفها المسنون حفر الأرض. وحدّد آدم عرض الحفرة التى سيحفرونها.

كان قابيل وإقليما قويين. فحفر كل منهما بجانب الآخر وفى الوقت نفسه، دون أن يشردا. وحاول هابيل ولبودا تقليدهما. فاستسلمت لبودا مضطرة. ولم يستسلم هابيل. يريد أن يبيّن لإقليما أنه قوى مثل قابيل، فكّرت حواء وهى تلاحظه. أى قدر يصنعه إلوكيم بجعل واحدة أجمل من الأخرى؟ لماذا يستحوذ الجمال على كل هذه السطوة؟ كانت تستطيع أن ترى هابيل وآدم يتابعان حركات إقليما، يتوقفان عند استدارة مؤخرتها وساقيها الطويلتين وذراعيها ونهديها. كان لا يمكن، حتى بالنسبة إلى حواء، تجنب الإعجاب بجسدها المرن وهو ينتصب وينحنى ليحفر الأرض. أدرك آدم وجود حواء وهى تستريح لحظة تحت شجرة. فنظر إلى ابنته بجانب عينه وغض بصره سريعًا وهو يشعر بخزى ما قد يكون فكّر فيه. بدون خبث، لم يكن هابيل يدارى افتتانه. نظرتْ حواء إلى قابيل وقد توقف فجأة، أخذ إقليما من ذراعها ودفعها لتقف أمامه. ومن مكانها، بلغتْ رؤية ابنها يتحدى أخاه، يهدده. ورأت هابيل مرعوبًا ينظر إلى أبيه، الذى أمر إقليما أن تستريح بجانب حواء. لستُ متعبة، قالت هى. لا يهم، قال آدم. رافقى أمك.

جلستْ إقليما بجانب لبودا، التى كانت تغزل حصيرة من نبات متسلق. إقليما المنعزلة. انتبهتْ حواء أنها من صغرها كانت محاطة بطبع رقيق يعزلها عن الآخرين. كانت طفلة جميلة، لكنها كلما كبرت، كلما حاصرها جمالها، مثل الهوة التى فرقتهما عن الجنة.

ما من شىء فى الطبيعة، لا بين الحشرات ولا المناظر ولا النباتات، يثير فى القلب البريق الذى تحدثه إقليما دون أن تفعل شيئًا سوى حضورها. إنها أجمل منك، اعترف آدم لحواء، وهو يقول لها إنه لم يفكّر أبدًا فى أن أى مخلوق سيقاربها فى الجمال. وكانت حواء، حتى وقت قريب، تعتقد أن إقليما تتمتع بنفس براءة هابيل، براءة مطلقة ونبيلة، عاجزة عن إنجاب التعقيدات التى تعذبهما.

كان من السهل أن يُشعَر، كما بالكبرياء، بالسذاجة التى بها يعتقد هابيل بطيبة العالم الفطرية، بسعادته الدائمة، بدهشته مما يعتبره الآخرون غير قابل للإدراك، ومحيرًا، بل ومنحرفًا.

فى الجنة، أخبرتها الحيّة أن إلوكيم لا يريد أن تمتلك هى وآدم معرفةً حتى يكونا وديعين مثل: القط والكلب. هكذا كان هابيل، مخلوقًا منزليًا جميلاً وحلوًا ووديعًا؛ بسيطًا مثل طفل.

لكن إقليما لم تكن مثله مهما أرادت أن يعتبراها بنفس الطريقة. إقليما كانت مدركة لسطوة طلتها البرّاقة. وممارسة ذلك كان جزءاً من كينونتها، مما

يصنع اختلافها. ومع ذلك، لم تكن حواء على يقين من **أنها تلاحظ** كليةً ما تثيره فى أخويها وحتى فى آدم.

كانت لبودا تستر جسدها بجلباب غزلته من الصوف. بينما كانت إقليما تشد على خصرها فقط قطعة جلد ضئيلة.

عليكِ أن تسترى جسدك يا إقليما - قالت الأم - فأنتِ لم تعودى طفلةً. إنك تثيرين أخويكِ وحتى أباكِ.

ليس ذنبى أن أكون ما أنا عليه - ردت هى.

أعرف ذلك.

ثم كيف أنظر أنا إليهم ولا أُثار؟ هم من عليهم أن يسيطروا على أنفسهم.

صمتت حواء. كانت إقليما قليلة الكلام، لكن عندما تتكلم تصير حاسمة.

إقليما محقة - قالت لبودا - لم يثارون هم ونحن لا نُثار؟

تتمنين أن تثيرى قابيل، أليس كذلك يا لبودا؟ - قالت إقليما:

أحقيقة ذلك يا لبودا؟ - سألت الأم.

دائمًا ما شعرت أننى قريبة من قابيل - قالت لبودا - إنه أقل كمالاً من هابيل. وأنا أقل كمالاً من إقليما.

لكن قابيل توءمى - ردتْ إقليما - هو لى وأنا له.

وهابيل حتى لا ينظر إلىَّ ـ جاوبتْ لبودا ـ بينما قابيل يجلب لى فواكه ولوزًا.

هابيل لا ينظر إلا إلى نفسه. لا يحتاج إلينا. لايحتاج إلى أحد ـ قالت إقليما:

إنه طيب جدًا ـ قالت حواء ـ إنه سعيد.

إنه لا يرتاب أبدًا ـ ردت إقليما ـ لا يتساءل أبدًا. يتفاهم هو وحيواناته جيدًا جدًا.

صمتن. ونظر الثلاث إلى الرجال، الذين كانوا يواصلون الحفر.

أتكون حقيقةً أنهم وحدهم من يثارون؟ كانت إقليما ولبودا صغيرتين جدًا على معرفة ذلك، لكن حواء نعم كانت تشعر بشهوة جسدها كلما عانقها آدم بالليل. مع ذلك، كان قربه هو ما يثير لديها هذا الإحساس. ومجرد رؤيته لم تكن كافية. نعم كانت تفكّر أن آدم جميل، وكانت تُعجَب بحجم ذراعيه وعرض صدره وقوة ساقيه، لكن عينيه، وطريقته فى النظر إليها ما كان يحوِّل النهار أو الليل إلى فرصة مناسبة ليبقى الواحد منهما داخل الآخر ويعرف من جديد، فى وسط عزلة منفاهما، سلوى أن يكونا معًا. يبدو الرجال ـ بلا شك ـ أكثر قابلية للإثارة. فالجمال فى حد ذاته يخاطب أجسادهم. وعند رؤيتهم ينظرون إلى إقليما، كانت تشعر بهم غرباء فيما بينهم، واقعين تحت سطوة غريزة تحثهم على التنازع على الغنيمة. كيف نفهم أن الجمال يقلقهم بهذه الطريقة بدلاً من

أن يرسخ لديهم الرغبة فى الاحتفاء به؟ يجب أن أسأل آدم، فكّرتْ حواء. فهابيل لن يعرف الإجابة بالتأكيد. وربما لا يعرفها قابيل كذلك. أيكون جمال إقليما تحديدًا أم أن هناك سببًا آخر؟ الشمس والقمر؟ وإلى أية نقطة سيصل ذلك؟ وماذا سيحدث عندما يخبر آدمُ قابيلَ أن إقليما سترافق هابيل؟

رأت حواء الحيّة فى المنام. رأتها كما كانت قبل أن تزحف، واقفةً بجانب الشجرة، وكان جلدها مذهبًا وممتلئًا بالحراشف، ووجهها مسطحًا، ولها ريش ناعم فوق رأسها.

هل غفر لك إلوكيم؟ ـ سألتها.

يغفر لى فى الأحلام.

بماذا يحلم؟

يحلم أنه يندم. ويخاف.

من أن يجعلنا سعداء؟

من القلق والبحث والتحدى.

لقد قلتِ إن إلوكيم تركنا بمفردنا ليجرب إن كنا قادرين على العودة لنقطة البدء. أنكون حينها فقط سعداء؟

الوقت طويل عند إلوكيم.

استيقظتْ حواء. ولم تكن تود الاستيقاظ. أغمضتْ عينيها. متى، أخبرينى متى سنعود؟ سألت فى الظلام، ولم يجبها أحد.

-٢٣-

استغرق شق الحفرة قمرين كاملين. فى القمر الثانى الجديد نزفتْ إقليما ولبودا. فعانقتهما حواء، وهدأتْ من خوفهما.

لا أعرف لماذا يحدث ذلك، لكن بعد الدم يأتى الأبناء.

حكت لكل واحدة منهما حكاية ميلادها. فأدركت لبودا وإقليما ما الثقب الأعمى الموجود فى منتصف البطن. كان السُرّة. فلا ثقب عند آدم ولا حواء. وسألتا: كم من الوقت سننتظر حتى ننجبا أبناءً؟ وأى شىء يضعه الرجال من جانبهم؟ ولماذا يشبه هابيل وقابيل آدمَ؟

ابتسمتْ حواء. كانتا تريدان معرفة كل شىء.

مبكرًا. بدأت فترة الأمطار والبرد. رحل الرجال بمفردهم ليبحثوا عن جذوع أشجار يصنعوا بها معبرًا

فوق الحفرة. أبقتْ حواء البنتين معها. استراحت معهما فوق فروة الدبة. أشعلت النار. وفكرت فى الكلمات التى ستستخدمها لتخبرهما بما تريدان معرفته.

قالت لهما إنها كانت بداخل آدم قبل أن يأكلا من ثمرة شجرة معرفة الخير والشر، لكن آدم لم يكن أبدًا بداخلها فى ذلك الحين. وحتى الوقت الذى فيه ما عادا خالدين، لم يشعرا بحاجة أحدهما إلى الآخر. أجبرهما الموت على نوع آخر من الخلود، على خلق من يحفظ ذكراهما ويستمرون عندما يرحلان هما. كان إلوكيم قد قال إنهم من تراب وإلى التراب يعودون. لكنه أمرهما كذلك أن يكبرا ويتناسلا.

واصلت حديثها بأنها لا تعرف إن كان الشىء نفسه سيحدث لهما. ففى حالتها، جاء يوم أحست فيه برغبة عارمة فى أن تشعر بآدم فى داخلها.

امتلأت بشرتى بعيون وأيادٍ- قالت - كنت أود رؤية حتى العمق. كنت أود لمس الهواء الساكن فى آدم. وتنفّسه. كنت أود لو أفهم جسده ولو يفهم هو جسدى. كنت أود طريقة أخرى للتعبير غير الكلمات، طريقة أتحدث بها تشبه طريقة القط الذى يتمسّح فى سيقاننا لنعرف أنه يعرفنا. وكان أبوكما يشعر بنفس الإحساس. فبدأنا نقترب بفمينا، بلسانينا، لأنه من هنا يخرج ما نتكلم به. واكتشفنا اللعاب والأسنان، واستحوذت علينا فجأة لغة مجهولة. كانت لغة ملتهبة،

كأننا أشعلنا نارًا فى دمائنا، لكن كلماتها لا صيغة لها. كانت تبدو تأوهات طويلة، دون أن يؤلمنا شىء. كانت تنهيدات، زمجرات، ماذا أعرف أنا. وامتلأت أيدينا بالإيماءات، وبالرغبة فى رسم الأشياء الغامضة فى جسدينا. ابتل فَرْجى. فظننت أننى أتبول، لكنه كان شيئًا مختلفًا. أما آدم، فانتصب قضيبه، هذا المعلق بين أفخاذ الرجال. كأن يدًا تتصوب ناحية مكمنى. فى النهاية بدأنا نفهم أن هذا الجزء منه يجب أن يستقر بداخلى حتى نعود واحدًا من جديد. تألّمتُ عندما دخل فى مكمنى المبلل. فكرتُ فى أنه لن يبلغ ذلك، لكنه استراح بشكل ضاغط. كان شعورًا غريبًا فى البداية. وبدأنا نتحرّك. أعتقد أن آدم قد ظن أنه يستطيع أن يلمس قلبى. فتوغل أكثر بداخلى باحثًا عن نهايتى. اهتززنا، مثل اهتزاز البحر فوق الشاطئ. بعدها شعرتُ أن داخلى يريد أن يضغط على يده هذه، يتشبث بها، يخرج للقائه. واعتقدتُ أننى لن أقاوم مزيدًا من هذا الشعور. وحينها، امتد وميض على ساقىّ وصعد إلى بطنى، وصدرى، وذراعىّ، ورأسى. ارتجفتُ بعدها كليةً مثل أرض سقط عليها رعد. قال آدم إنه كان فيضانًا بالنسبة إليه، نهرًا خرج مندفعًا وانسكب بداخلى. ارتجف هو أيضًا ـ قالت حواء، مبتسمة ـ صرخ. وأظننى فعلتُ الشىء نفسه. بعدها غرقنا فى النوم.

مارسنا ما مارسناه هذا بشكل متكرر بمجرد أن عشنا هنا، فى هذه المغارة، بعيدًا عن الفردوس.

وكانت هذه سلوانا. هكذا ربحنا شيئًا لمّا فقدنا خلود الجنة. وأسميناه بالحب. وعبر ممارسة الحب امتزج بكما آدم، كما امتزج بقابيل وهابيل. لهذا يبدو لى أنهما يشبهانه.

شردت لبودا وإقليما. وكانتا تستمعان إليها مفتونتين. شرحتُ لهما بأبسط ما يكون، فكّرتْ حواء، وأنا خائفة مما سيأتى، وكان سؤالاً لم يتأخر: ومع من سنمارس الحب نحن؟ قالتا، وهل سيشبه أبناؤنا قابيل أم هابيل؟

ـ٢٤ـ

فكروا أنهم غير مضطرين لحمل أشياء كثيرة من المغارة إلى مأواهم الجديد، لكن ما أن تقدموا نحو ضفة السهل، حتى صارت المرأة والرجل والابنان والبنتان مثل صف نمل يسير.

سارتْ حواء على مهلها وتخلفتْ عنهم. لم تتساءل حتى أعدت الأصداف والعظام والأشياء الصغيرة والكبيرة المحيطة بها كيف قبلتْ أن تهجر هذا المكان الحميم الذى تحتفظ جنباته بذكريات حياتها. وأذهلها أن عثرتْ فى خبيئات متناثرة تحت الصخور أو فى فجوات الجدران على أنياب حيوانات وأحجار نهر مثقوبة وهيكل سمكة ونجمة بحر وريشة فينيق ومشيمات متيبسة لأبنائها. كان رؤية كل ما تحتفظ به برهانًا على طول وعرض الزمن الذى مضى منذ طردهما إلوكيم من الجنة. تملّكها الحزن وهى تنظر لنفسها من بعيد، كأن من تحتفظ بكل ذلك ليست إلا

ذكرى من نفسها. وبينما كانت تشير إلى أبنائها إلى ما ينبغى حمله أو تركه، كانت صور من البدء تشغل ذهنها: جلود مدبوغة، أوانٍ منقوشة، سهام وأدوات حجرية، ودمى طينية بدينة وخصبة عجنتها بالصلصال بشكل ساخر خلال الأيام التى بقت فيها وحيدة وهى تشعر أن بحرًا أوشك أن يغرقها. فكرت فى أنها لا تريد الرحيل. وانتابها هاجس بأنه عندما يسود الصمت وتبقى الرسومات فقط على الجدران، ستتبخر حواء التى وُجِدتْ هناك مثلما تبخرت الجنة. تجادلت حول إيقاف نشاطهم المحموم، لتقتسم مع آدم رنين الحداد الذى تردده المغارة الخاوية داخل صدرها. فكبحها حماس الآخرين. كانوا متلهفين إلى تذوق مأوى جديد، واجتياز الحفرة التى شقوها.

بلغها آدم فى الطريق. كان يحمل أكياسًا جلدية تحوى حرابًا وخطافات صيد و رءوس سهام. لاحظ بطء خطوتها وانحناءة رأسها وحنقها.

يمكننا الرجوع إلى المغارة القديمة كلما شئنا.

لكن لا يمكننا الرجوع إلى تلك الفترة يا آدم.

ولماذا تودين الرجوع لتلك الفترة، قال، لتلك العزلة، وتلك التيهة.

لا أعرف ـ قالت ـ ربما لأننا كنا أصغر سنًا. ربما لأن الأيام كانت تبدو جديدة، وكنا نعتقد أن بوسعنا فعل أشياء أخرى غير السعى للعيش. أشعر أحيانًا أنه الشىء الوحيد الذى نفعله.

كان هذا هو التحدى فى رأيه، قال، برهنة أن بوسعهما البقاء حيين.

البقاء من أجل ماذا، قالت. ما المغزى من وراء اختلافنا عن الحيوانات إن كان الغرض مجرد الطعام؟ إن كانت قد أكلت من الثمرة المحرّمة، فذلك لأنها ظنت أن هناك شيئًا آخر يجب أن يوجد.

ربما كان هناك شيء آخر وكان الهدف اكتشافه، قال. فأجابته بأنها قَلِقة ألا تكتشفه أبدًا.

أنتِ حزينة ـ قال آدم ـ الحزن مثل الدخان، لايسمح بالرؤية.

وصلوا إلى المأوى. أصابها بالعدوى حماس أبنائها. وكان ناجحًا نتاج عملهم. كانوا قد وثقوا بألياف نباتات متسلقة جذوعًا نحيلة حتى لا يكون المعبر ثقيلاً جدًا فيمكنهم رفعه مع حلول الليل. وكانت الحفرة عميقة بما يكفى، والمغارة رحبة ويدخلها نور أكبر. نعم تستطيع الحيوانات أن تحاصرهم، لكنها لا تستطيع الدخول.

لم يستغرق الترتيب وقتًا طويلاً. وضع كل واحد منهم أشياءه فى مكانها. وكان مدهشًا رؤيتهم وهم يتخذون أماكنهم ويرتب كل منهم أدواته: الأحجار التى سنّوها بجهد ـ وشيئًا فشيئًا اتسقوا معها ـ والهراوات التى شذبوا حافتها للصيد، وأدوات القطع والسلخ. كانت إقليما تكتنز خرزات مذهبة، وتبنًا وعشبًا تصنع به سلالها؛ أما لبودا، فلديها عظام حيوانات

لخطافات صيد وحتى أدوات لفك عقد فرو النعاج؛ ومع هابيل عصى الراعى وعكاكيزه، وقابيل يحمل أدواته التى بها يحفر الأرض ليزرع البذور التى يحصدها.

فى ليلتهم الأولى بالمغارة، صار القمر أحمر. دخل هابيل بصرخات: السماء تأكل القمر، قال. فخرجوا راكضين. فى السماء شاهدوا القمر بدرًا، ورأوا فمًا أسود يأكله من حافته. كان الفم ينفتح أكثر وأكثر؛ فم من الدخان يطفئ بريق القرص المستدير الشاحب والأعزل فى منتصف السماء. لا يمكن تفسير ذلك. إنها علامة، فكّر آدم.

وخوفًا من مضايقة حواء، لم ينفّذ أمر إلوكيم: هابيل مع إقليما وقابيل مع لبودا. والآن سيأكل إلوكيم القمر. وقد تصير الليالى سوداء. نظر إلى حواء. حتى فى الظلمة لاحظ وجهها الشاحب.

ما هذا؟ ماذا حدث؟ سأل الأبناء. بينما كانت حواء تتمزق أمعاؤها.

كان آدم محقًا. ومهما فكرت هى فيما تفكر فيه، لن تستطيع هذه المرة أن تخالف إلوكيم، أن تتجاهل أحلام الرجل عندما تقبل هى فى أحلامها رؤية الحيّة والتكلم معها. من المستحيل التكهن بالعقابات التى قد يفرضها إلوكيم إن عصيا من جديد، وإن كانت هى من جديد من راعت عصيانه. ومع ذلك، وعبر الأيام، كان الشعور المسبق والقاتم بكارثة يأتيها ويتسع فى

جسدها. واتخذ القمر لون اللوز. أحمر ومستدير، كان يبدو أنه يركز فوق قاعدة منيرة في أعلى نقطة في السماء التي فجأةً شابه سطحها البراق بحراً.

إنها سحابة - قالت حواء لتهدئ التوائم - كأن القمر شعر بالبرد فالتف بسحابة.

اقترب منها آدم. أشار إلى السماء ونظر إليها بدقة. ففهمته.

افعل ذلك - قالت - تكلم معهم.

بعد قليل شاهدوا من جديد ظهور القمر خلف حجاب نحاسي. القمر بدر. لقد نجا.

ـ٢٥ـ

متتبعًا أثر الجواميس فى الشمال، عثر آدم منذ وقت مضى على وادٍ خصيب محاصرًا بالجبال كان فيه الصيد غزيرًا. إلى هناك سيصحب ولديه، سيتحدث معهما، سيطلع كلاً منهما مَن رفيقته. حواء تريد حماية لبودا. تخاف أن يرفضها قابيل كبديلة لإقليما. فترجت آدم أن يتأكد من رضاه قبل العودة.

رحلوا بعد أيام قليلة، عند الفجر. خرجت حواء لتوديعهم وهى تدارى غمها. سارت معهم حتى لمعت الشمس فى علاها. ومن بعيد كانت تلمح الجبال القاتمة تحت سماء الخريف المتجهمة. أوراق الشجر الذابلة التى كانت تغطى الأرض كانت تتفتت تحت خطواتهم. وماء النهر كان يجرى غامقًا، ملوثًا من الأمطار التى تجرف غبار الأرض وجذور وأحجار الضفاف. عندما افترقوا، طلبت منهم حواء أن يرفعوا أيديهم عند الوصول لحافة الوادى حيث بداية

الخضرة الكثيفة. هكذا تتمكن من رؤيتهم من بعيد مرة أخرى. لاحظت استغراب ولديها، فقد اعتادا أن تودعهما دون اهتمام. قد يتخيل قابيل أنها تفعل ذلك لأجله، فكّرتْ هى. لكن العادة أن الثلاثة لا يخرجون معًا. ومن النادر أن يطلب منه أبوه أن يرافقه. كان يسير مع هابيل ويترك قابيل يواصل طريقه معهن أو يبقى بمفرده، بحثًا عن فطور أو أرض خصبة يزرع فيها بذوره. كان يُلاحظ أنه مسرور؛ لأن أباه أخذه معه هذه المرة. هابيل سار أيضًا بهمة مرتفعة. كان يحب أخاه الأكبر. وفى صغره كان يسير خلفه دائمًا، ويقلّده. وكثيرًا ما كانت محاولاته فى تتبع خطاه تنتهى بحوداث طفولية لا يمكن تجنبها. حينئذ كان قابيل يحتمل غضب الأب وتوبيخه؛ لأنه لم يعتن بأخيه.

انتظرتْ حواء فوق بروز صخرى حتى اختفى الرجال بين الخضرة البعيدة، بعد أن أدوا الإيماءة المتفق عليها.

بعدها، جلستْ على الأرض وشرعت فى البكاء.

يا حواء، يا حواء، احتفظى بدموعك.

كانت الحيّة جالسةً بجانبها. ولم تكن تزحف. كان لها الهيئة نفسها التى كانت عليها لمّا رأتها أول مرة فى الفردوس.

حلمتُ بكِ ـ قالت حواء مذهولة ـ حلمتُ بكِ مثلما كنتِ من قبل، مثلما أنتِ الآن. هل غفر لكِ إلوكيم؟

نعم.

أتعتقدين أنه سيغفر لنا أيضًا؟

ربما يفعل ذلك على طريقته.

وماذا سيحدث لأبنائى؟

سيعرفون الخير والشر.

وسيعانون؟

قلت لكِ إن المعرفة تخلق المعاناة.

دائمًا تتكلمين كيلا أفهمك.

لا أعرف التكلم بطريقة أخرى.

قولى لى ما الشر. هل أنتِ الشر؟

ضحكت الحيّة.

أنا؟ كم أنتِ مضحكة. الشر والخير، وكل ما فى الكون وسيكون فيه، منبعه هنا: بداخلك، بداخل أولادك، بداخل الأجيال التى ستأتى. المعرفة والحرية هبتان أنتِ يا حواء أول من استخدمهما وعلى نسلك أن يتعلموا استخدامهما بأنفسهم. سيلقون عليكِ الذنب باستمرار، لكن بدون هاتين الهبتين لن يحتملوا الحياة. ستسبح ذكرى الفردوس فى دمائهم ولو استطاعوا فهم لعبة إلوكيم ولم يقعوا فى الشَرَك الذى سيصنعه هو بنفسه لهم، سيغلقون دوائر الزمن وسيعرفون مجددًا أن البداية من الممكن أن تكون النهاية أيضًا. ولكى يصلوا إلى هناك لا سبيل لهم إلا الحرية والمعرفة.

أتقولين إننا من نخلق الخير والشر بأنفسنا؟

لا أحد آخر. أنتم وحدكم.

وإلوكيم؟

سيتذكركم من آن إلى آخر، لكن نسيانه كبير مثل ذاكرته.

نحن وحدنا.

اليوم الذى فيه تقبلون ذلك ستكونون أحرارًا بحق. والآن يجب أن أرحل.

أتتلاشين مثل الجنة؟ أسنلتقى من جديد؟

لا أعرف.

أعتقد أننا سنلتقى. أعتقد أنك لن تنسينى.

اقبلى وحدتك يا حواء. لا تفكرى فىّ ولا فى إلوكيم. انظرى حولك. استخدمى هبتيكِ.

اختفت الحيّة فجأة بين هواء الظهيرة. رجعت حواء الطريق الذى سارته. ريح قوية كانت تنفث. صاحبتها عاصفة. تساءلت إن كانوا سيحتملون هم واقع أن يبقوا وحدهم. وهل سيكونون وحيدين جدًا؟ وتذكرت الجلود التى بها تغطيا عند خروجهما من الجنة، والريح التى أنقذتهما من الموت عندما ألقيا بنفسيهما من الجبل، والقمر الجديد المائل للحمرة والمختبئ، لماذا كل هذه العلامات؟ أترى الحية تريد أن ينسوا إلوكيم؟ الحق أنهم لو بقوا وحدهم لن يتحتم على أحد غيرهم معرفة الخير والشر، وتعلم العيش

دون انتظار شيء لا يتدبرونه بأنفسهم، وتحديد هدف وجودهم دون مساعدة. ربما تكون هذه هي الحرية التي كانت الحيّة تتحدث عنها. لو أن إلوكيم قد حثهم على استخدامها لينساهم وينصرف لخلق عوالم أخرى، فالمعرفة إذًا، منذ حدثت حتى طُردا من الجنة، كانت هدية وليست عقابًا؛ دليل ثقة على أنهما وكل من ينحدر منهما ويسكنون هذه الأرض المتسعة سيجدون أنفسهم وحيدين وسيشيدون طريقة للعيش تكون سلوى لهم أمام حقيقة الموت. لكن، كيف يفسّر أوامره؟ قابيل مع لبودا، وهابيل مع إقليما؟ كيف ستحيا الحرية إن تحتم عليهم التصرف على عكس ما تمليه عليهم قلوبهم ليطيعوا أقدارًا يجهلونها مثل هذه؟ ولماذا مواجهتهم - دومًا - بضيق تلك المعضلات، الطاعة أو العصيان، ومواجهة العقابات؟ لا، فكّرتْ حواء. لسنا وحدنا. مع أننا جديرون أن نكون كذلك.

عادتْ إلى المغارة. كانت السماء تمطر رذاذًا قليلاً. وجدت إقليما ولبودا تصنعان من السعف سلالاً لجمع الثمرات. كان صمتهما أمام هواجسهما ثقيلاً عليهما. فبدون أن تبوح لهما حواء وآدم بشيء، شعرت لبودا وإقليما أن رحلة أبيهما مع الولدين أكبر من رحلة صيد. لقد نزفتا. صارتا امرأتين. والحياة تنتظر فيهما.

متى سيعودون؟ سألتا. لن يتأخروا، أجابت حواء. وكانت تشعر بنبضات قلبي ابنتيها كأنهما قلبها، لكنها لم تتحمس لتبلغهما بما سيأتي. كانت تشكّل الكلمات،

تمضغها، تحس بها تتحرك فى فضاء فمها، لكن شيئًا فيها كان يرفض النطق بها. كانت تود أن تحتفظا بخفة جسديهما، وأن تؤخر عنهما الألم، وأن تطيل قدر استطاعتها بقاء القماشة المضغوطة التى حتى الآن تلف حياتيهما، فتلك الكلمات عند نطقها قد تمزقهما. لم تفكّر أبدًا أنها قد تتذوق ألمًا أكبر من الألم الذى شعرت به وقت الولادة، لكن ما كان يخترق الهواء الذى تتنفسه فى تلك الأيام كان قاسيًا مثل الذى كان يسكن فى ذاكرتها. كانت معرفتها أنهما سيعانيان - وأن سلواها لهما ضئيلة - اختناقًا عتيدًا فى صدرها. كانت تراهما فى المنام وخلفهما حافات هاويات وأنهارًا ثائرة وحرائق. وكانت تحلم أن صوتها يموت فى حنجرتها كلما حاولت تنبيههما للخطر، للهاويات، وللوحوش الضارية.

- ٢٦ -

مضت الأيام. خرجتْ حواء إلى النهر لتبحث عن سـمـكـات وسـرطـانـات. الأوراق بـدأت تـذبل فـوق الأشجار، ورائحة أرض مبللة تفوح ويطفو هواء صيف حزين ومحتضر فوق الطبيعة. جلست القرفصاء على الضفة ومعها سلة من النخيل فى انتظار أن تقترب السمكات. نظرت لبريق الماء وشفافيته ولرغوة التيار تتطاحن فى حواف الصخور. فكرت أنها ربما تبالغ فى حزنها. ماذا يحدث لى؟ فكرتْ أيضًا. لم تتذكر يأسًا شبيهًا أصابها من قبل. لماذا لا تنتظر أن يرضى كل من ابنيها برفيقته؟ كانا يتحابان. كانا أخين. لاينبغى أن يفترقا ولا أن يتخليا عن حبهما. دون معرفة حميمية الأجساد، ربما يحتملان التخلى بألم أقل مما تتكهن به. ربما هى، لأنها تعرف عمق رغبتها نحو آدم، كانت تتخيل الشىء نفسه فى قابيل وفى إقليما. هابيل لن يتنازل عن رفيقته. ولبودا تفضّل

قابيل. مع ذلك، ومهما حاولت أن تقنع نفسها، لم تستطع تخيل إقليما وقابيل خاضعين لتجاهل غريزتيهما التى، منذ الصغر، تربط كليهما بالآخر.

استمعتْ لخطوات فوق الأوراق الجافة. إنها الحيّة، فكّرتْ. رفعتْ عينيها. كان قابيل.

كان يأتى معبئًا بالكلمات. كل كلمة تزن حجرًا مسنونًا. كان يلقيها كالطلقات دون توقف، دون أن يأخذ نفسًا بين كلمة وأخرى. التهكم والوله والكثافة الجارحة لما يقوله، كانت أشياءً جديدة فى هواء الأرض. أين عثر قابيل على هذه الطريقة التى بها يصب المرارة على اللعاب؟ تساءلتْ. خرجت من الماء وهى تمسك السلة التى تهتز بداخلها سمكتان. شدت ظهرها ونظرت إليه، بعينين جاحظتين، ونبضات قلب يتردد صداها فى أذنيها. بدا لها كما الصخرة. كل ما فيه قاسٍ. وجهه قاس، وفمه معوج، وعريض، كأن الكلمات تشغل مساحةً أكبر مما يمكن أن تحتمله الأسنان. كان يتحدث عن الضرب، التمزيق، السحق، الدفن. وكان يدينها لأنها أنجبته، ولأنها أكلت ثمرة التين، وخسرت الفردوس، ولأنها السبب فى أن تركت آدم يحب هابيل وحده. هابيل الأحمق. ولم يهدأ صوته إلا بذكر إقليما، ولأنه مدرك لتأثيره، كان يتوقف لاستعادة نبرة السباب وليصف دون مراعاة للإخوة وجه لبودا الغريب والضئيل، قائلاً إنها مهما عاشت فلن ترى بين أبنائها من هو أقل منها جمالاً. وبعد أن

سمعت كل ما قاله أطلقت حواء من خرسها مفاجأة موجعة.

انصرف إلى المغارة القديمة يا قابيل، ولا ترجع حتى تأتى لطلب المغفرة منى.

منتصبةً، بيد تشير إلى بعيد، ومتقدةً بالألم والغضب، رأته يجبن أمام نظرتها الحادة. سمعت خطواته فوق الأوراق الجافة عندما أولاها ظهره ومشى، ضاربًا بعصا فى يده الأحجار والأغصان وكل ما صادفه فى طريقه.

زعزع قرار آدم وإرادة إلوكيم نسيج وجودهم الحميم والحتمى كأنه كارثة. صرخات، لعنات، بكاء، نظرة لبودا التائهة وصمت هابيل الخائف، هذا ما وجدته حواء عند عودتها من النهر. بينما كان آدم يتجول من جانب إلى آخر، مشوشًا.

غضبه يذكّرنى بيوم قتلتُ الدبة بيد عزلاء. انقض علىّ قابيل. بعدها اندفع كالأعمى نحو هابيل. وهابيل لم يفعل شيئًا. غطى وجهه بيديه. واضطررتُ أن أرفع قابيل من فوقه. وفى النهاية بكى كل منهما. وخرج قابيل راكضًا من هناك. ولم ينبس هابيل بكلمة. ولم يتحدث بشىء فى الطريق بطوله حتى هنا. أنا حدثته وشرحت له. وهو كان ينظر لى فقط. كان شيئًا فظيعًا ـ قال آدم.

أخرجته حواء من المغارة. اصطحبته صوب صخور تحت ظل مجموعة من النخلات التى تنمو

بمحاذاة ملاذهم الجديد. كانت لا تزال ترتجف، ويستحوذ عليها الحنق والضيق. جلست وأسندتْ ظهرها إلى حجر. لم تكن تعرف كيف تتكسر العظام لكنها كانت تشك أن عظامًا غير مرئية من الممكن أن تتكسر وتضعف المرء.

ماذا سيحدث يا آدم؟ ماذا سنفقد هذه المرة؟

لا أعرف يا حواء. قد يكون هذا اختبارًا للأبناء. ربما شاء إلوكيم اختبار حريتهم ليعرف إن كانوا سيطيعونه.

لا أعرف أية حرية هذه.

حرّكتْ حواء رأسها. غطت وجهها بيديها. عجزت عن البكاء. كانت تريد أن تحمى أبناءها. ولم تستسلم للتفكير فى أن هذا هو الفخ الذى سيفقدهم براءتهم. الحرية نعمة، قالت الحيّة من قبل. لكن يبدو أن إلوكيم نفسه لا يفهم الحرية. كان يريد أن يجعلهم أحرارًا، لكنه كان يقيدهم بتلك الوصايا التى لا يمكن إدراكها. من أية مادة صُنِع؟ تساءلت. من الشكوك أيضًا، مثلنا؟

ماذا سنفعل يا آدم؟ كيف سنرضيه؟

الزمن يا حواء. فقابيل وهابيل أخان. وسيدرك قابيل أنه لم يكن قرار هابيل - قال آدم - يجب أن يفهم أن هناك دماءً لا يصح اختلاطها. سأرسلهما ليقدما القرابين معًا. وأنا وأنتِ سنجبرهما على رؤية وجوب التصالح فيما بينهما، ووجوب فهم أقدار إلوكيم.

بشكل جيد كما فهمناها أنا وأنت؟ ـ سألته حواء بسخرية:

فى اليوم التالى لم يعد قابيل.

سأرسل لبودا لتبحث عن قابيل ـ قال آدم:

لا! لا ترسل لبودا-قفزت حواء ـ أخشى أن يصيبها بأذى. أنا سأرسل إقليما. هى سيسمعها. الحوار سيحسّن حالة كليهما.

أمرت حواء إقليما بالنهوض من ركن المغارة؛ حيث تكورتْ على نفسها منذ الليلة الماضية بساقين ملتصقتين بصدرها وبوجه بين ركبتيها ونهنهة. نظرت إليها. كانت صبية جدًا. وكانت صورتها وملامحها قد ودعت الطفولة، وجسدها يهمهم بلغة جديدة. تساءلت بماذا يشعر أبناؤها، وكيف سيكون هذا الانتقال نحو بداية النضج والذى لم تجربه لا هى ولا آدم. ما كانت حقًا تعرفه كان مدى جموح الرغبة فى عدم الخضوع لمطالب لم يستطع المرء بعد فهم أسبابها. وكانت تعرف العواقب كذلك.

هيا ابحثى عن قابيل يا إقليما.

شرعت لبودا فى البكاء. وفى وجه هابيل المفزوع كان يُقرأ حنق هادئ.

راحت إقليما تبحث عن قابيل. خرجتْ فى ساعة منتصف النهار، وعادت معه عند الغروب. ساعات طويلة. نظرتْ حواء إلى وجهيهما الخاليين من الحسرة. عصيا الأمر، فكّرتْ. هما أيضًا عصيا.

ركع قابيل أمام حواء. طلب منها المغفرة. عانقته حواء. ضغطت عليه بشدة ناحيتها. أى عقاب ستناله يا بنى؟ فكرتْ.

ـ ٢٧ ـ

أمر آدم أن يعدا الهدايا التى سيقدمانها كقرابين لإلوكيم.

لم يود قابيل الخروج لجمع قربانه مع لبودا. ولمّا خرجت إقليما مع هابيل، جلس هو القرفصاء يرتب عدته. نظرتْ إليه الصبية وهى تعبر. بعينين متقدتين. لمحتْ حواء تبادل النظرات. ورأت ذراع قابيل يضغط، ويده المرتجفة فوق الحجر.

كان المذبح الذى اعتاد آدم أن يضع عليه القرابين بالقرب من المغارة القديمة، جنوب الجبل المنتصب وحيدًا فى وسط صخور السهل المائلة للحمرة.

أسرع قابيل. تميز عنه أخوه بالسبق فى الخروج، لكن بما أنه يعرف هابيل، يعرف أنه سيتأخر طويلاً فى الاختيار بين نعاج قطيعه. توجه للحديقة التى زرع فيها قرعًا. قطف الثمرات الأولى التى رآها، وأضاف إليها حزمة قمح وعنقود عنب. قام بذلك بسرعة

واستطاع الوصول إلى المكان عند اقتراب هابيل وإقليما. جاء أخوه يحمل على ظهره نعجة مذبوحة. لابد أنها أفضل نعجاته. كانت جميلة وسمينة وكان دم الذبح يتدفق فوق رقبة هابيل وصدره.

وقف قابيل أولاً أمام مذبح آدم. وضع قربانه. واقترب هابيل.

حاول وضع نعجته بجانب قربان أخيه، لكن هذا قطع خطوته.

معذرة يا هابيل. عليك أن تبحث عن مكان آخر لقربانك.

اعتقدتُ أننا سنقدمه معًا.

لقد أخطأت.

لكن المكان يسع قربانين.

دفعه قابيل. جمّع قوته وبجانب جسده الأيمن هاجمه بقوة كافية ليفقد الآخر اتزانه ويهتز.

قابيل! ـ صاحت إقليما.

اهدئى أنتِ ـ صرخ فيها قابيل.

نظر هابيل إلى أخيه من أعلى إلى أسفل، غير مصدق، وأخذ جانبًا، وشرع فى جمع الأحجار ليصنع مذبحه الخاص. كانت حركاته المتجهمة تشى بحزنه وضيقه.

ظل قابيل يراقب أخاه بطرف عينه. وكانت إقليما جالسةً على صخرة، بظهر منحنٍ وذراعين متقاطعتين

عند الخصر، وقدم تهتز بتوتر وترسم صورًا فى الأرض.

أنهى هابيل فى وقت صغير المذبح المرتجل حيث وضع أضحيته. وبعدها شرع فى الركوع. والتزم الهدوء بعينين مغمضتين.

ركع قابيل كذلك. سمع قلبه ينبض فى ذراعيه وفى ساقيه، وكان يتملكه هيجان غضب يملؤه كليةً ويمنعه من التفكير أو الصلاة.

السماء المغيمة كانت تنذر بوابل مطر. نظرتْ إقليما إلى السحابات السوداء والمشئومة فى الأفق. شعرتْ بالريح ترفع جبهتها، وتنفخ ما بين الأشجار.

فجأة، أصابهم بالعمى نور شعاع وهّاج. وشعروا برائحة لحم محترق. كانت النار قد سقطت بالضبط فوق قربان هابيل، والتهمته.

فوق الأحجار لم يتبق سوى طيف الحيوان وكوم رماد أسود.

نظر هابيل إلى قابيل. وابتسم بسعادة كبيرة:

الحمد لك يا إلوكيم ـ قال بصوت مرتفع وسجد.

اللعنة عليك يا إلوكيم، فكّر قابيل، اللعنة عليك. أنت تفضّل أخى، مثلما يفعل أبى.

لم يكن قد سمع من قبل صوت إلوكيم. ولمّا سمعه فجأة يتردد فى رأسه بدأ يرتجف. سمع بوضوح الرسالة: لماذا تلعننى يا قابيل، ولماذا أنت حزين؟ لو

كنت يقظًا وعادلاً، سأتقبل منك أيضًا قربانك. وعندما تسبنى فأنت تسب نفسك.

خرج راكضًا، مخذولاً، نادمًا. ولم يتوقف حتى وصل إلى حواء. وارتمى فى حضنها كما كان يفعل صغيرًا.

الصوت حدثنى. الصوت حدثنى ـ كرر ـ سمعته يا أمى. سمعته.

حضنته حواء، وهدأته. وكان اضطراب قابيل يمزق قلبها. كل أولادها اعتقدوا ذات مرة أن صوت إلوكيم قد حدثهم. كلهم باستثناء قابيل. والآن وقد سمعه، حدست هى أنه بجانب الرعب قد شعر أنه محل اعتبار. وبمجرد أن هبط إلى المغارة، عرف آدم ما حدث من حواء. رأى قابيل متكورًا بين ذراعيها. وقبل أن يتخذ رد فعل شعروا بهابيل وإقليما يدخلان، يتسرسبان بسرعة عبر السلم. فانتفض قابيل من بين ذراعى أمه، واتخذ ركنًا، وسند ظهره إلى جدار، وكان وجهه عابسًا. ولم يستطع هابيل أن يكبح فرحته.

أخذ إلوكيم قربانه بنفسه ملفوفًا فى شعاع من النور، قال متفاخرًا. لابد أنكم رأيتموه، صاح. فمن النعجة التى وضعها على حجر القرابين لم يتبق إلا الرماد.

لم تؤكد إقليما ما قاله هابيل فحسب، بل وحكت المشادة بين الأخين. ولامت قابيل. ليس بهذه الطريقة ستصل لإدراك إلوكيم، قالت. لمعت عينا قابيل فى

الظلمة. عينان قويتان. وصمتَ. سمح لهم أن يحتفوا بهابيل وأن يقمعوه هو. وكانت لبودا تراقبه بطرف عينها. وحاولت أن تجلس بجانبه، وأن تأخذ يده. فأبعدها عنه بضربة يد لم يشعر بها أحد سواها.

لم ينم قابيل فى تلك الليلة. تجول أمام المغارة، تحت نور القمر. أطلت حواء ورأت الطيف المنزعج، وضجة خطواته. عادت إلى جانب آدم مغمومة ولم تستطع مصالحة النوم.

فى اليوم التالى، راح قابيل إلى الحقل بصحبة لبودا. ظن آدم أنه أصبح أكثر هدوءًا. وأحست إقليما بارتجافة حتى عادا. لم تستطع حواء أن تهدئ الضجيج الكامن بداخلها. أيكون الخريف، فكّرتْ، حيث رؤية كيف يموت كل شىء بتمهل. أشجار بلا أوراق، ليل قصير، نعيق البومات وصوت خطوات لاوجود لها خارج خيالى. العالم المتوتر، الرابض، كان يذكرها بالهواء المكتوم بعدما أكلت ثمرة شجرة معرفة الخير والشر.

عانقت الأمُ لبودا.

قابيل لا يحبنى ـ قالت ـ لا قابيل ولا هابيل ولا إقليما ولا أبى. ماذا أنا يا أمى؟ ما مصيرى؟ أرى قطعان القردة وكثيرًا ما أود أن أرحل معها.

لكنك لستِ واحدة منها يا لبودا.

سأشعر براحة أكبر. فلن يرفضنى أحد.

ماذا تعرفين يا ابنتى؟

أعرف أن قابيل لن يرافقنى. وماذا تعرفين أنت يا أمى؟

أعرف أنك لستِ قردة.

وماذا يهمنى إن كنت قردة؟ سأعرف على الأقل من أنا.

لكنك تفكرين.

وكيف تعرفين أن القرَدة لا تفكر؟

لأنها لا تفعل شيئًا أكثر من العيش. لأنها لاتتحدث.

وهل هذه نقيصة؟

لا أعرف يا لبودا. أحيانًا لا أعرف ما الخير وما الشر. اهدئى. نامى.

فكرت حواء وقتًا طويلاً فى كلمات لبودا. وبرؤية وجهها تذكرت القرد الذى دعاها لتسلق شجرة فى الغابة وبعد ذلك دلها على طريق العودة إلى المغارة. ضمتها إلى صدرها أكثر. بكت دون صوت. فبللت دموعها شعر ابنتها.

ـ ٢٨ ـ

تجنبهم قابيل جميعًا وكرّس وقته لبذر بذوره. حصد العدس والقمح وقَلّب الأرض لزراعات الربيع. وكان يعود إلى المغارة فى ساعات غريبة. يراقب إقليما وهابيل. ويرفض الكلام مع لبودا.

كان آدم يقاوم الانصياع للحزن الذى يهددهم. لقد عمّروا الأرض حتى اللحظة وسيستمرون فى تعميرها. وإن لم يتكاثر أبناؤهما، سيتكاثر هو وحواء. سيهدأ مع مرور الوقت اضطراب قابيل. فإن كان أبوه وأمه قد احتملا ضياع الفردوس، فلابد أن يحتمل هو أيضًا. عليه أن ينتظر. الزمن يمر ويزيل كل الخلافات، والمرء يقبل ما لم يستطع تغييره. صارت حواء غائرة العينين، وقليلاً ما تنام.

عاد إلى روتين صيد الحيوانات. الشتاء كان يقترب وهم مضطرون أن يستعدوا لليالى الباردة والمظلمة، وللأرض اليابسة والأشجار العارية. هابيل

وآدم خرجا معًا من جديد. ولبودا وإقليما وحواء كن يجمعن الفطريات والأعشاب والأسماك.

صارت الليالى متوترة، ممتلئة بالضجيج والخطوات. كانت حواء تغمض عينيها بالقوة رافضةً رؤية من يتجول من هناك. بل وتجبر آدم على التزام الهدوء. ذات ليلة، خُيِّل إليها أنها سمعت على الجانب الآخر من المعبر صوت قطيع من القردة. جلستْ وبحثتْ عن لبودا ولم تتمكن من رؤيتها، لكنها وجدتها عند الصباح فى مكانها المعتاد دومًا. كان حلمًا، قالت لنفسها.

جاء اليوم الذى فيه خرج قابيل من مسكنه. فكرت حواء فى أنها قد تعود للنوم من جديد كسابق عهدها وتودع النوم الهش الذى تقطعه الأصوات التى ما عادت تستطيع معرفة هل هى حقيقية أم خيالية. رأت قابيل يقترب من هابيل، ورأتهما يتحدثان فاضطرت للابتعاد لتدارى دموع فرحتها.

فى الصباح التالى خرج الأخان معًا. رأتهما حواء يرحلان ويلفهما جو من الرضا. وابتسم آدم لزوجته بينما كان يميل فوق الأخدود الذى فتحه ليغير مجرى ماء النهر وليقصّر المسافة التى يسيرونها لإطفاء عطشهم.

مضى اليوم خفيفًا ورائقًا. قرب الغسق، كانت حواء ترسم الأوانى ولبودا تسن الخطاطيف، وآدم ينهى القناة ليحمل الماء. ضجة الأوراق الجافة التى تدوسها قدم أحد يركض اضطرتهم لرفع رءوسهم.

خرجت إقليما من بين الشجيرات لاهثةً.

ما الذى قالته عينا إقليما فانتفضت؟ نهضت حواء مسرعةً.

ماذا جرى؟ ـ سألتْ.

فتحت إقليما فمها. لم يخرج أى صوت.

ماذا جرى؟ ـ كررت الأم.

كفّا آدم ولبودا عما يفعلانه.

ضرب قابيلُ هابيلَ. وانقطع صوت هابيل وهو الآن يرقد فوق الأرض بعينين مفتوحتين.

شرعت إقليما فى الكلام. حكت أنها فى بداية وقت الظهيرة، بينما كانت تغزل بعض السلال، رأت أن محاولاتها فى أن تستمر يدها مع إيقاع تفكيرها تذهب هباءً. القلق أجبرها أن تقرر الخروج بحثًا عن قابيل وهابيل. رحلت دون أن تخبر أحدًا، مغمومةً لأنها تشعر برأسها مليئة بحشرات هائجة، وفى صدرها يُسجن عدد من العصافير التائهة التى تفتح أجنحتها. ومع سرعة ساقيها وصلت دون تأخير إلى بستان القمح. تساءلتْ إلى أين يصطحب قابيلُ هابيلَ، لأنها لم تجدهما هناك، ولا فى منبع النهر، حيث تنبت الفطريات، ولا حيث يطل القرع برأسه البرتقالية. فكّرتْ فى المغارة القديمة، فى شجرتى التين، فى أشجار الكمثرى. فركضت لاهثةً. ومن خطواتها كانت تفزع القردة فوق الأشجار والخنازير الضارية. فى طريقها، كانت الأشواك تخطّط جلدها. لمّا وصلتْ

لغابة أشجار الكمثرى، شعرتْ برائحة قابيل. لقد كان هناك، لكنه انصرف. سارت وراء حاسة شمها، التفتت إلى الجبل المنعزل وتسلقتْ بعض الصخور لترى إن كان بإمكانها رؤية أخويها. لمحتْ طيفًا فوق الجسر. ركضت إلى هناك صارخةً لتنبه قابيل ألا يرحل وأن ينتظرها.

عندما وصلت انحنت لتسكّن الألم الحاد جرّاء ركضها والذى كان يخترق أضلاعها.

ظننتُ أن هابيل نائم وممدد على الأرض، وأن قابيل بجانبه قَلِق فى نومه. لكننى سمعت بعد ذلك نهنهات قابيل. ورأيته برأسه بين ساقيه. كان يهتز بجذعه من الخلف للأمام بيدين متقاطعتين خلف رقبته. وبمجرد أن رآنى، أطلق صرخة. وشرع فى البكاء. ماذا جرى لهابيل يا قابيل؟

وقال لى: إنه ميت يا إقليما، لقد قتلته.

إنه ميت يا إقليما، لقد قتلته. إنه ميت يا إقليما، لقد قتلته. إنه ميت يا إقليما، لقد قتلته. سمعتْ حواء العبارة فاختفتْ كل كلمات العالم ماعدا تلك الكلمات. ودت لو تفكّر فما فكّرتْ إلا فى إنه ميت يا إقليما، لقد قتلته، ودت لو تتكلم فما ملأ لسانها إلا إنه ميت يا إقليما، لقد قتلته. وبقتْ ترى تلك الكلمات، ترى الصورة التى تصفها إقليما: هابيل فى الأرض وقابيل يردد تلك العبارة مرة وراء مرة.

واصلت إقليما كلامها.

هل قتلته؟ سألتُه، دون أن يسعنى إدراك ذلك. فكّرتُ فى أننا لم نر من قبل أحدًا منا يموت. وفكرتُ فى أن قابيل قد التبس عليه الأمر. حينئذ جثوت على ركبتى بجانب هابيل وشرعتُ فى ندائه. رأيتُ الدم تحت رأسه. هالة حمراء. ورأيت هابيل بنظرة ثابتة نحو السماء. هززته. توسلت إليه أن يستيقظ. كان هابيل باردًا، مجمدًا، مثل ماء النهر. إنه لا يستيقظ، قال لى قابيل. وقال لى إنه قد حاول ذلك. وقال لى إنه لا يسمع أى صوت بداخله. وصاح بأنه قد قتله. وقتله ـ ارتجفت إقليما، وهى تطلق بكاءها ـ قتله. قتله حقًا. لقد شاهدته. كان ميتًا. لا يتحرك. لايتكلم. ينظر بتحديق. وكان باردًا. قابيل قتله. قتله قابيل! لم يقصد قَتْله لكنه قَتَله. مسكين يا قابيل. وماذا سيحدث لنا؟ أين هابيل الآن؟ وأين الموت؟ وماذا نفعل لنعيده إلينا؟

لم يكن أحد منهم قد مات من قبل، فكّرتْ حواء. لم يكن بوسع أى منهم أن يموت، فكّر آدم.

تذكرتْ حواء الحيّةَ: لم يكن الموت سهلاً، كانت قد قالت لها. لن يسمح إلوكيم بأن يحدث ذلك، حدّث آدم نفسه. فهو وحواء، منذ زمن مضى، قد ألقيا بنفسيهما من قمة الجبل معتقدين أنهما سيموتان، فما حدث سوى أن وجد نفسيهما داخل نهر وبلا أى خدش.

هيا يا إقليما، اصطحبينا إلى حيث يقبع أخواكِ.

ـ ٢٩ ـ

هـرول الأربـعـة دون تـوقف. ركـضـوا عـبـر مـنـظـر طبيعى خريفى.

كانت تُعتم. وفى السماء كانت السحابات تحترق فى نور الغسق الأحمر، والأرض الغامقة والكريهة كانت تعيد إليهم ضجيج أقدامهم التى تتساقط بإيقاع على الأرض.

كانوا قطيعًا. قطيعًا مرعوبًا. ومن خطواتهم كانت العصافير تنهض لتطير. والحيوانات تشتم رائحة حنقهم. فلم تقترب إحداها.

إنه ميت يا إقليما، لقد قتلته. كانت تريد محو الكلمات، لكنها كانت ترن فى أذنيها كما الكعوب المتساقطة واحدًا وراء الآخر على الطريق. هل كان هذا حقًا؟ هل قتل قابيلُ هابيلَ؟ كلهم كان يعرف القتل. حتى هى. كانت السمكات تموت فى سلالها. كانت ذيولها تضرب الجوانب عندما تبقى بلا ماء.

لكن، أيقتل بشرًا مثله؟ كيف لم يعرف قابيل مقياس قوته؟ حكت إقليما أن قابيل ضربه بحجر. هكذا كان آدم يقتل الأرانب.

هكذا حكى لها أنه قتل الدبة التى مزقتْ كلبه. ماذا فعل آدم، وماذا فعلت هى عندما قتلا أول مخلوق؟ أى قوى وحشية أطلقاها ليبقيا على قيد الحياة، ليأكلا؟ ولماذا قدّر لهما إلوكيم هذا؟

هل كان مدركًا لما يفعله؟ أم فعل ذلك بنفس الخفة التى بها رسم السماء، وسلّح الزهور، وأجنحة العصافير؟ هل كان يفكّر؟ وإن كان لا يعيش مثلهم، كيف يمكن أن يقدّر لهم حياتهم، ويقدّر لهم ما يمكن أن يكونوه أو لا يكونوه؟

أشارت إقليما إلى الجبل. تسلقوا. ارتجفتْ لبودا، وتعثرتْ. رأتها حواء تستند على يديها لتدفع نفسها للأمام، لتصل بسرعة أكبر.

انتبهى ليديكِ يا لبودا.

نظرتْ إليها بعينين عذبتين، ولم تتكلم. وأثارت فقط ضجيجًا حزينًا وحادًا.

شاهد آدم صورة هابيل ممددة على الأرض. كان قد قتل حيوانات كثيرة حتى لا يتعرّف على العلامات. لكنه ركض ولمسه. وكان أول من أوغل رأسه فى صدر هابيل. بكاؤه كان حشرجةً، وهائلاً. وامتلأ الهواء بغمه. كان نداءً، كان قبولاً بالهزيمة.

اقتربتْ حواء بتمهل. ارتجفتْ ساقاها. تذكّرتْ إحساسها وهابيل فى رحمها. غشاء ودم جسده الصغير. حدّقتْ بعينيها فى بطن قدمى الصبى. كانتا مدبوغتين. قدمان ناعمتان، وكبيرتان. وأصابعهما كذلك. أقدام أبنائها الصغيرة . ما من شىء فتنها عند مولدهم مثل الأقدام والآذان الصغيرة، ورسمة الآذان المتعرجة كما الحلزون. اقتربتْ أكثر. رأت عينيه المحدقتين. مالت ولمست جفنيه لتغلقهما. فعلت ذلك بلا تفكير. معرفة الخير والشر.

هابيل الجميل. نائم. مررت يدها على جبهته. بشرته باردة. تسرسب الحزن إلى جسدها بتمهل، كأنها تمتلئ كلها بالماء حتى تعجز عن التنفس. جلستْ بجوار رأسه. داعبته. ودت لو تعانقه، لو تلصقه فى صدرها، لو تضغط عليه بقوة، لو تواسيه. كم ستكون وحيدًا! فكّرتْ. أكثر وحدةً منهما لمّا كانا وحيدَين.

بكى آدم. وكان بكاؤه يخرج من مكان لا يبدو من داخله، بل من داخل الأرض نفسها. بينما أخذت حواء رأس هابيل ووضعته فى حجرها.

ساعدنى يا آدم، ساعدنى على أن أحضنه، ضعه بين ذراعىّ.

ساعدها آدم. فأوسدته ذراعيها. وهدهدته. ما من بكاء يناسب هذا الألم، فكّرتْ، بينما تجرى الدموع على خديها، وتنسكب فوق صدرها. عانقتْ هابيل بشدة. أين حياتك يا هابيل؟ لِمَ لا تتحرك؟

كان ثقيلاً جدًا، ووحيدًا جدًا. لمستْ رأسه. لمست **الجرح** فى الجمجمة. لم يعد ينزف. صار بطنها أجوف، وشعرتْ بخواء مكان الابن كأنه انفصل عنها فى التو. الماء فقط ما يغمرها. ماء خنقها حتى استطاعت أن تخرج تأوهًا عميقًا، واستسلمت للحسرة أمام معرفة أنها لن ترى أبدًا هابيل حيًا مرة أخرى. للأبد.

رأت لبودا تقفز وتئن. كذلك إقليما.

أين قابيل؟ ـ سألتْ ـ أين ابنى قابيل؟

لا أعرف ـ قالت إقليما ـ لا أعرف.

ابحثى عنه يا إقليما. ابحثى عنه ليساعدنا فى حمل هابيل إلى المغارة. لا يمكن أن نتركه هنا.

دخل الليل. أشعل آدم نارًا. ووضع مصطلى فى كل جوانب هابيل، ورافق هو وحواء ابنهما تحت سماء قاتمة ومرصعة بالنجوم.

كانت لبودا قد راحتْ فى النوم.

أتذكر عندما أدركتُ كينونتى ـ قال آدم ـ أتذكر وأعتقد أنه كان من الأفضل ألا أوجد أبدًا.

وأنا أتذكر لمّا أكلتُ ثمرة الشجرة. ما كان يجب أن آكلها.

ما كان هابيل سيموت. معك بدأ كل شىء يا حواء ـ رفع عينيه. ونظر إليها بحقد مجروح.

بدونى ما كان هابيل ليوجد ـ ردت هى ـ وما كنا سنتبادل الحب. معى بدأت الحياة التى كان يجب أن تبدأ. أنا فقط نفّذت ما هو مقدر لنا.

وبدأ الموت.

أنا وهبت الحياة يا آدم. وأنت من بدأت القتل.

قتلتُ لنحيا.

أنا لا ألقى عليك ذنبًا، لكن بمجرد أن قبلنا القتل لنحيا سمحنا للضرورة أن تسيطر على ضميرنا، وقبلنا الوحشية. وانظر الآن كيف حلت الوحشية واستقرتْ فى حياتنا.

ما كان يمكن تجنب ذلك. كما لم يمكن أن تتجنبى أكل الثمرة.

لو لم يجبرنا إلوكيم على أن يبادل كل من التوءمين أخته، ربما ما حدث شىء من هذا.

لماذا خلقنا يا حواء؟ لا أظن أن هناك ألمًا أشد مما تألمته.

تقول الحيّة إن إلوكيم خلقنا ليرى إن كان نسلنا يستطيع العودة لنقطة البدء واستعادة الفردوس.

أترانا نحن البداية؟

قالت لى الحيّة إننا فى الجنة كنا الصورة التى يريد إلوكيم رؤيتها فى نهاية خلقه. وعندما أكلنا من الثمرة، غيّر هو اتجاه الزمن والآن، لكى نعود لنقطة البدء، سيتحتم على أبنائنا وأبناء أبنائهم والأجيال

التى تلينا البدء مرة أخرى، والرجوع بتقهقر. هذا ما قالته.

وإلى أين علينا أن نتقهقر؟

لا أعرف يا آدم. أعتقد أننا سنكون فى النهاية قطيعًا. ربما تحوى لبودا المستقبل. ربما لهذا تبدو لك غريبة. وربما تكون الماضى الذى لا نعرفه.

بريئة جدًا لبودا.

وأصيلة.

لكنها ستقتل أيضًا.

قابيل قتل.

صمتت حواء.

يؤلمنى الابن القاتل والابن المقتول ـ قالت فى النهاية.

ألا تشعرين أن علينا عقابه؟

عقابه؟ أؤكد لك أنه ما من عقاب سنفرضه عليه أشد قسوة مما سيعانى منه بنفسه. سيرافق إقليما. أتنبأ بذلك. أعتقد أنهما قد عصيا، كما عصينا أنا وأنت.

ـ ٣٠ ـ

عاد قابيل مع إقليما عند بزوغ الفجر. ركع أمام آدم وحواء.

لم أرغب أبدًا فى قتل هابيل ـ تنهنه ـ فقط لم أكن أعرف ثقل يدى.

انهض ـ قالت حواء.

نهض قابيل. فرأت حواء دائرة عميقة فى جبهته. قرمزية اللون. لحم حى. محروق.

من فعل بك هذه العلامة؟ ـ سأل آدم.

إلوكيم.

كيف؟ احك لنا ـ استفسرتْ حواء.

قال لى هابيل إنه سيكون أبًا طيبًا لأبناء إقليما، وإننى سأكون سعيدًا مع لبودا ـ تنهنه ـ فقلت له إننى أنا وإقليما شىء واحد، فلا يستطيع أحد منا الحياة بدون الآخر. لكنه قال لى إن إرادة إلوكيم أن ينجب

من إقليما. فضربته. ولم أكن أعرف أن ضرباتى ستقتله. واختبأتُ. حينئذ سمعتُ صوت إلوكيم. سألنى عن هابيل. يسألنى أنا عن هابيل! هو من يعرف كل شىء! فغضبتُ ـ بكى ـ أترى أنا حارس أخى؟ أجبته. فقال لى إن دم أخى قد وصل حتى إليه. ولعننى! وحَكمَ أن الأرض لن تهبنى ثمرات مرة أخرى. وسأصير هاربًا مشردًا فى جنبات العالم. توسلتُ إليه. سجدت له. قلت له ليس بوسعى أن أحتمل عقابًا بهذا الحجم. ستقتلنى الحيوانات، التى ستأتى بعد ذلك، ستقتلنى. حينئذ ترك فى جبهتى علامة. سترى العلامة ولن تقتلك، قال. وإن فعلت ذلك، سيقع عليها الانتقام سبعة أضعاف.

قام قابيل بإيماءة من يقع بين يدى آدم. كان يبكى، ويرتجف. دفعه آدم. فتلقفته حواء بين ذراعيها، لكنها لم تستطع أن تعانقه بقلبها. فابتعد قابيل.

ارتمت إقليما على التراب. ضربت جبهتها فى الأرض. فكّرت فى هابيل، فى جسد قابيل، الذى كان منذ أيام قليلة مضتْ داخل جسدها، فكّرتْ كيف أحبته؛ فى العزلة التى سترافقهما والتى سيتحتم عليهما الحياة فيها. كانت تبكى بكاءً له صيحة تشبه الريح، كأن عاصفة قد استحوذت عليها ومزقتها أشعتها ورعودها.

اشتركوا جميعًا فى حمل جثمان هابيل إلى المغارة القديمة التى ولد فيها.

نظّفت حواء رأسه من الدم. وتذكرت المرة الأولى التى غسلته فيها فى الينبوع، كم كان ناعمًا ومتحركًا ودافئًا عند خروجه من بطنها؛ وكم هو متيبس وبارد الآن. سمحت للهواء بالخروج من رئتيه. وسُمع عواؤها كأنها ذئبة. وظل الألم غير ملموس كأنه جرح طازج لا شىء يستطيع تضميده.

حرق آدم راتنجات عطرية بجانب ابنه. وفكروا فى حرق الجسد فى مصطلى حتى يصعد دخان القربان إلى إلوكيم. أين كنت يا إلوكيم عندما كان الولدان يقتتلان؟ صاح آدم فى صمت. وتوسلت إليهما إقليما أن يدفنوه فى التراب. فبما أن هابيل لم ينجب أبناءً، فقد يصير جسده على الأقل غابة، ويهب الثمرات عذوبة. تخيل آدم ابتسامة ابنه تظهر بين أوراق شجرة ما. من تراب وإلى التراب تعود. تراب خصب.

اضطروا لدفن هابيل ثلاث مرات. فالأرض، التى لم تعرف من قبل موت كائن بشرى، أعادت بقاياه مرة ومرتين. كانوا يغلقون الحفرة فتُفتح من تلقاء نفسها. حتى كانت المرة الثالثة، سجد آدم وحواء وتوسلا الأرض أن تستقبله، حينها أغلقت على جسد هابيل واحتفظت به للأبد.

ـ ٣١ ـ

كان ينبغى أن يرحل قابيل إلى أرض نود. قال إن إلوكيم أمره بهذا.

رفض آدم أن ينتظر ليراه عند رحيله. عاد وحده إلى المغارة بلا ذكريات. قال إنه لم يبق له إلا البنتان. لقد مات الولدان بالفعل.

عاتبته حواء على قسوته. فبيديه، كى ينتقم لموت كلبه، قتل دبة كانت تدافع عن صغيرها. لقد عرف الغضب غير المنطقى الناتج عن فقدان حبيب.

ليته يأتى هذا الزمن الخالى من الوحشية الذى تحلمين به يا حواء.

اغفر لقابيل.

لم يتنازل آدم. وتذكرت هى أنها تساءلت ذات مرة إن كان إلوكيم قد صنعه من حافة جبل ما.

واستمرت حواء مع أبنائها فى مغارة الرسومات.

تحدث قابيل وإقليما بالكاد. كانا يعدان أحجار العمل، والبذور والبطاطين التى سيحملانها معهما إلى شرق الفردوس. كان قابيل قد تعرف على هذه الأرض خلال واحدة من اغتراباته. كانت خضراء، قال. ورغم أنه لا شىء مما تبذره يداه سيخرج ثمرة، لن تشعر إقليما بالجوع ولا بالعطش.

لم تتكلم لبودا منذ مات هابيل. ومتكورة داخل تجويف صخرة، فى ظلمة عمق المغارة، لم تلب أيًا من نداءات حواء. وكلما اقتربت هذه، كانت تحدق فى عينيها العذبتين والمرعوبتين. بنسيانها الكلام كان يبدو أنها أيضًا فقدت عقلها ووعيها، لتخضع بذلك بلا امكانات لوجودها كقردة. راقبتها حواء. ونامت بالكاد وهى خائفة أن ترحل مع قطيع القردة الذى كان يجول حول المغارة ليلاً.

فى الصباح، راقبت قابيلَ وإقليما وهما يغتسلان فى الينبوع قبل خروجهما إلى عدم يقينية حياتيهما المشردة. رأت يدى قابيل، وشعرت أنها تلمس من جديد جرح رأس هابيل العميق. ودون أن تكف عن حبه، تمنت له مصائب تجبره على التواضع والخجل. كانت تتملك المعرفة الفظيعة لنسيج الابن، وكانت تعرف اللحظة المناسبة التى فيها التوت أغصانه، وجذوعه العطشى التى لم ترتو أبدًا. كانت تدرك الأصل لكنها لم تنته بعد من فهم العنف. هذا العنف على وجه الخصوص. العنف القادر على قتل الأخ.

تنهنهت إقليما وهى تودع لبودا، التى كانت تنظر إليها وتفتح ذراعيها لا لتعانقها، بل لتلمس رأسها، وبعينين لامعتين بلا دموع نظرتْ إليها بفضول. لم تبك وهى تودع حواء. كانت متعجرفة، وصامدة أمام قبول الضعف. كانت تحتمى وراء جمالها، لكنها، فوق كل شىء، تعشق قابيل ولا تود أن تظهر أمام أمهما أى شرخ فيما بينهما.

رأت حواء صورة ابنيها المشوشة وهى تتضاءل عند عبور السهل وتشتاق لآدم. كان ينتظر وصولها.

تركتها الحسرة بلا حركة. وشيئًا فشيئًا عادت عيناها المحملقتان للنظر فى المغارة بجدرانها المكسية بالرسومات. فكرت فى الآثار التى قبل أن تخلفها هذه الصور فوق الحجر نحتتها فى قشرة قلبها. كل رمز خشن أو سائل أعاد لها من ماضيها ما أرادت اكتنازه وحمايته من النسيان. ولأن كيانها بالكامل، بعد موت هابيل، صار مفتوحًا وغير محمى، لخصت حواء بلا تزييف ولا ابتداع وجودها الغريب. اعترفت أنها وآدم، رغم الكارثة، يحتفظان بأكثر من ذكريات عن الفردوس؛ الفردوس الذى كان يطاردهما ويطفو فوق حياتيهما. لم يفقداه أبدًا. ولن يفقداه ما دام أثره الذى لا يمحى لا يزال مرسومًا فى داخل كل منهما.

ظهرت الحية مرة أخرى.

اصطحبت حواءُ لبودا لتعرف البحر قبل أن تعود إلى جانب آدم.

بعد أيام قليلة صار شعر البنت يغطى خديها من جديد. وتخشّن جلد يديها وقدميها الطويلتين والرقيقتين واكتسب لونًا قاتمًا. كان يبدو أنها قررت السماح لليل أن يسكنها. كانت حواء تسير وهى تمسك بيد لبودا، المنصاعة والحمقاء، والخاوية من الكلمات. وبعد فترة هينة، كانت تتقافز فى الطريق وتركض مستندة إلى ذراعيها. بهرها البحر. قفزت مبتهجة فوق الرمل وغطت عينيها بذراعها لتتجنب بريقه. تركتها حواء لتمرح، وأرسلتها لتحصد محارًا وصدفًا.

جسلت فوق الصخرة التى حلمت وهى عليها أنها رأت امرأة ترتدى ريشًا، ولها وجه يشبه وجهها. سمعت صوت الحية قبل أن تراها.

انظرى إلى الصغيرة لبودا. الماضى والمستقبل يهرولان معها على الشاطئ.

ماذا تقصدين؟

عادت إلى البراءة يا حواء؛ براءة ما قبل الفردوس، واللاحقة للفردوس. لقد قفز التاريخ منك إليها الآن وزمن طويل وبطىء فى حالة البداية.

لا أعرف إن كنت أصدقك. لماذا لبودا؟ لماذا لم يكونا قابيل وإقليما؟ ولماذا لم يكونا أنا وآدم؟

كلنا نفذنا ما قُدّر علينا يا حواء. وبالطريقة نفسها التى بها رسمتِ فى جدران المغارة رموز ماضيك، رسم إلوكيم فينا رموزًا ستتفاهم البشرية من خلالها فيما بينها.

ولبودا؟

لبودا هى واقع إلوكيم. أما نحن فأحلامه.

قلتِ إنه فى البدء تكمن النهاية.

نهاية نسل لبودا سيكون الوصول للبدء. والاعتراف به كذاكرة ودوا لو وجدوها تصنع وتدمر تاريخها الخاص.

أيعودون للفردوس؟ وماذا بعد ذلك؟ أيتساءلون ماذا يضم الغيب؟ أسيشعرون بالملل؟

للفردوس لا. ولن يعانوا من عمى البراءة، ولا الحنين لمعرفة الجهل. لن يحتاجوا لقضم الثمرات المحرمة ليعرفوا الخير والشر. سيحملونهما بداخلهم. وسيعرفون أن الفردوس الوحيد؛ حيث الحياة واقعية هو هذا الفردوس الذى يتملكون فيه الحرية والمعرفة.

أتعتقدين أنهم سيصيرون حقًا أحرارًا؟ أتعتقدين أن إلوكيم سيسمح لهم بالحرية؟

الوجود هو لعبة إلوكيم. إن وجد نوعك الانسجام، سيرحل إلوكيم. أعتقد أنه يرغب سرًا أن يهبوه نعمة النسيان وأن يحرروه من عزلة سلطته. هكذا يستطيع أن يرحل ليشيد عوالم أخرى.

وأنتِ ترحلين معه؟

سأرحل يوم يستطيع نوعك أن يفهم العلامات. سأرحل إن لم ننته أنا وهو كضحايا لمخلوقاتنا.

نظرت حواء إلى الحية بحزن. وبينما رأت جلدها المكسى بالحراشف يمتلئ بالريش الأبيض، تماهت مع وجهها المشقق. وفى لحظات قليلة غطاها الريش الناعم واللامع. مرة أخرى، كما فى حلمها القديم، رأت حواء وجهها الخاص معكوسًا فى المخلوقة، قبل لحظات من ذوبانها إلى الأبد.

نادت للبودا. أخذتها من يدها وبدأت طريق العودة إلى المغارة.

بقت رائحة الملح الصخرى خلفهما. اجتازا التلال الناعمة. وقضيا الليلة متعانقتين تحت بعض الصخور. عند الفجر هبطا إلى المنخفض المشجر الذى فيه، منذ سنوات طويلة مضت، تاهت حواء. كان ذهب الربيع يضىء البلوط وأوراق الشجر. ضغطت حواء بقوة على يد لبودا. وبقلق، كانت لبودا تنظر إلى قمم الأشجار. تقفز قفزات صغيرة. وتخدش رأسها.

شاهدت حواء قدوم قطيع من القردة الكبيرة، رشيقة ومنتعشة تتقافز فوق الأغصان.

شعرت بعينيها رطبتين. كم فقدتُ، فكرت.

قفزت لبودا من يدها. وقبل أن تتركها تنصرف مالت عليها وضمتها بقوة إلى قلبها. تذكرينى يا لبودا، قالت، تذكرى كم عشتِ. ذات يوم ستتكلمين من جديد. الآن اذهبى. اركضى يا ابنتى، شاهدى الفردوس واستعيديه!.

سارت حواء وحيدة فى طريقها. بدأ رذاذ مطر طفيف فى السقوط فوق العالم.

وبعدها كان المطر.

ماناجوا ـ لافينكا ـ سانتا مونيكا، ٢٠٠٧.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

٩ ـ العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٠ ـ نوّة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالفينو» رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

١٢- القلعة البيضاء.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ - أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ قرية ظالمة.. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ الرجل البطىء.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى».. رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ شوشا.. للكاتب البولندى «إسحق باشيفتس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ الحياة الجديدة.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٢١ ـ الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية ـ جائزة نوبل.

٢٣ ـ الأنثى كنوع .. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ إسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريجيتّه كروناور» مختارات.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث».. رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. ر واية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ يوميات عام سيئ.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ انقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة الغم مآ.. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الإسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ أين نذهب يابابا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٧١ ـ صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧٢ ـ المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٧٤ ـ كلُّ رجل.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ ـ نُريد أن نتحدث عن كيڤين.. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ ـ ألم فذ.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ ـ أناقة القنفذ.. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

٧٨ ـ حزن مدرسى.. للكاتب الفرنسى «دانيل بناك» رواية.. جائزة روندو.

٧٩ ـ غدًا.. للكاتب الألمانى «فالتر، كاباخر».. رواية.. جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

٨٠ ـ الكلمة المكسورة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

٨١ ـ أن نُصبح أغرابًا.. للكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.

٨٢ ـ المرأة المسكونة.. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة كاسا دى لاس أمير كاس.

٨٣ ـ بيتر كامينتسند.. للكاتب الألمانى «هِرْمَن هيسِّه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.

٨٤ ـ بيت السيد بيسواس.. للكاتب من ترينداد «ف. س . نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

٨٥ ـ مدريد الأصيلة.. للكاتب الإسبانى «كارلوس أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.

٨٦ ـ لاڤينيا.. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كى لى جوين».. رواية جائزة ديمون نايت التذكارية الكبرى.

٨٧ ـ أشجار متحجرة.. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

٨٨ ـ سنوات الهروب.. للكاتب الكولومبى «بلينيو أبوليو ميندوثا».. رواية.. جائزة بلازا إي خانيس.

٨٩ ـ الباحث عن الذهب.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

٩٠ ـ جائزة أو. هنرى.. مجموعة من المؤلفين.. قصص قصيرة.. القصص الفائزة بجائزة أو. هنرى لـ عام ٢٠٠٧.

٩١ ـ الحيوان المُحتضر.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة بن /نابوكوف.

٩٢ ـ أنشودة ألاباما.. للكاتب الفرنسى «جيل لوروا».. رواية.. جائزة الجونكور.

٩٣ ـ إنجيل الابن.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. رواية.. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٤ ـ الوصمة البشرية.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٩٥ ـ ليتنى لم أقابل نفسى اليوم.. للروائية الألمانية «هيرتا موللر».. رواية.. جائزة نوبل.

٩٦ ـ حكاية أوزوالد.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الأول. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٧ ـ حكاية أوزوالد.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الثانى. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٨ـ وبنى لها معبدًا.. للكاتب الألمانى «سيجفريد أوبرماير.. رواية.. جائزة شيلزهايم.

٩٩ ـ جنون المتاهة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولذر».. رواية.. جائزة صنداى تايمز لكاتب شاب.

١٠٠ ـ الملك ينحنى ليقتل.. للكاتبة الألمانية «هيرتا موللر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

١٠١ ـ العبد.. للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية.. جائزة نوبل.

١٠٢ ـ الفراشة والدبابة.. للكاتب الأمريكى «إرنست همنجواى».. قصص.. جائزة نوبل.

١٠٣ ـ التجمع.. للكاتبة الأيرلندية «آن ريت».. رواية.. جائزة البوكر.

١٠٤ ـ موندو.. للكاتب الفرنسى ج. م.ج «لوكليزيو».. قصص.. جائزة نوبل.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١- جزيرة صغيرة .. أندريا ليفى.. جائزة الأورانج ٢٠٠٥.

٢ ـ تيو.. باتريشيا جريس.. جائزة مونتانا للرواية ٢٠٠٥.

٣ ـ ذهول ورعدة.. إميلى تومب.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.. ١٩٩٩.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الرواية

تعلق "جيوكوندا بيلى" على روايتها بنفسها قائلة... "هذه الرواية تخييل يستند إلى تخييلات كثيرة أخرى، وإعادة تفسير من ضمن تفسيرات نسجها الخيال البشري حول أصولنا من أزمنة سحيقة".
فى هذه الرواية ولأن صاحبتها شاعرة فى الأساس، ستنتفى الحدود بين الشعر والسرد، وستأخذ المؤلفة بيد سردها وشخوصها إلى مكونات الشعر الأولى.. منطلقاته الفلسفية وتجريديته أحيانًا وكشفه لمواطن الجمال أحيانًا أخرى، ولغته المكثفة المثقلة بأكثر من وجه للحقيقة فى أغلب الأحيان.
هذه الرواية لاتعيد إنتاج الماضى أو تتناص مع قصة توراتية شهيرة، وإنما تكتب قلقها الوجودى وتصيغ سؤالاً مأزقه بصورة خاصة ومتفردة عشرات المرات من منطلقات مختلفة.
اعتمدت "جيوكوندا بيلى" فى روايتها على مصادر ومراجع كثيرة أهمها.. "مخطوطة نجع حمادى" التى عثر عليها راع فى كهوف مصر العليا عام ١٩٤٤، و"مخطوطات البحر الميت" التى عثر عليها فى وادى قمران عام ١٩٤٨، و"الميندرا" وهى أهم حكم الحاخامات المشهورين المتوارثة على امتداد قرون لتوضيح ما استغلق فهمه من لغة العهد القديم.

- الروائية: جيوكوندا بيلى، كاتبة من نيكاراجوا.
- الجائزة: جائزة "كاسا دى لاس اميركاس" عام ١٩٧٨.

ISBN# 9789772070657
6 221149 024861
الهيئة المصرية العامة للكتاب
الهيئة المصرية العامة للكتاب